أقرباذين

محمد سمير رجب

أقرباذين (مجموعة قصصية)

محمد سمير رجب

الطبعة الأولى: 2015.

تصميم الغلاف: عصام أمين

تدقيق لغوي: رباب الشهاوي، نهى حمدي

تنسيق داخلي: إسلام علي

المدير العام: رباب الشهاوي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: **2015/22931**

رقم الإيداع الدولي: **ISBN: 978-977-6534-05-6**

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing





أقرباذين

(مجموعة قصصية)

محمد سمير رجب



❤ إهداء ❤

إلى أمي، أساس كل دافع ومعنى في الحياة

القيمة العليا الباقية، في عالم بلا قيم

المبدأ الأسمى في دنيا اللامبادئ

إلى أخواتي الثلاث،

اللائي تحملن كثيرا، وسيرضين كثيرًا.

إلى زوجتي المثابرة الطيبة،

لازال في المتسع صبر، وفي المستقبل آمال كثيرة ستتحقق.

إلى كل من تركوا لنا الحياة عاقرًا ورحلوا في رحلة الآخرة،

إلى الأحياء الباقين، ابقوا معنا ما وسعكم البقاء، فلازالت الحياة رغم الخلاف

أشفق علينا من الموت والفراق،

إلى أبي مرة أخرى، ولمرات كثيرة عصية على العد،

لم تزدنا الأيام إلا حنينا إليك، والليالي إلا افتقارا للمثول بين يديك

إليك، وبشكل خاص، وبصورة استثنائية

أهدي إليك هذا الكتاب، وأهدي سلامي

إلى حين اللقاء..

بلاسيبو

كنت حديث عهد بهذه الصيدلية المرموقة التي تقع على ناصية شارع عمومي كبير بمدينة نصر. مشكلة أن تكون حديث العهد بأي وظيفة في هذه البلاد مشكلة قديمة. لن يتورع حتى من سبقك بيوم واحد عن إظهار براعته وخبرته التامة التي تصر على إبرازك كحمار يحمل أسفارًا. حتى مساعد الصيدلي حين يأتي لك بدواء لم تعرف بعد موضعه، سوف يضعه بين يديك وعيناه تفيضان زهوًا وافتخارًا. يرمقك بنظرات ندية تكاد تصرخ على الملأ محتارة متسائلة: بالله عليكم ألست أفضل ألف مرة من هذا الجحش الصغير؟.. بينما تنظر عيون الناس في تأكيد لما يحادث به نفسه قائلة: تالله إنه لعديم الفائدة، متى يصدر وزير الصحة قرارًا بإلغاء مهنة الصيدلي هذه من الوجود ليحل محلهم- أي هؤلاء الصيادلة- المساعدون والعطارون وخريجي كليات العلوم؟

أما الصيدلي الهمام الذي شاءت الأقدار أن تجعله يسبقني إلى هذه الصيدلية بيوم، بشهر أو بسنة- أيا ما كان هذا الصيدلي؛ فهو أحق الجميع بالخضوع له والاستسلام بين يديه. يتفاصح ويتذاكى ويتفيهق وكأنه «إسكلبيوس» إله الطب عند الإغريق. وهو كثير الإرشاد يتحدث حديث العارف المحيط، ولا يتردد عن مراجعة خطواتك حتى ولو صحيحة. ويخبرك بأن الصحيح هناك ما هو أصح منه، وأننا في حياتنا لابد أن نسعى دومًا ناحية الأصح، الذي لا يعرفه إلا هو فقط، بالتأكيد.

حتى الدواء الخطأ الذي أخرجه ذات مرة لمريض، كان يمتلك مبرراته الخاصة لإقناعك بأن الدواء الخطأ أحياناً يكون أكثر فائدة من الدواء الصحيح. وأن الصيدلة علم عجيب غريب لا تكاد تستقر فيه النظريات والآراء. ولربما يدور العلم دورة ليأتي اليوم الذي يكون فيه دواؤه الخطأ أنجع الأدوية قاطبة لهذا الداء الذي لا ينتمي له من قريب أو بعيد.

كان من بين كل هؤلاء شخص وحيد يركن إلى ذاته ولا يحاول التظاهر أو الادعاء، بل يواجه الحقيقة المؤلمة التي يتحاشى الكثيرون التعرض لها بغير استحياء أو مواراة. "كلنا حمير بدرجات مختلفة، بشكل أو بآخر، وليس ثمة ما يمكن عن طريقه إثبات أن بعضنا أقل حمورية من البعض الآخر"، بهذا اقتنع، وعلى ذاك استقر رأيه. وحين سألته ذات مرة عن سبب اعتناقه لهذه النظرية "الحمارية" أخبرني قائلا:

ـ يا صديقي، حينما يكتب الطبيب روشتة بها خمسة أدوية تحتوي على ثلاثة أخطاء تخص الجرعات، ثم تأتي ذات الروشتة لتمر من تحت يد الصيدلي وتخرج كاملة وبها أربعة تفاعلات دوائية، فهذا يزيد من مفعول ذاك، وتلك تقلل عمل هذه، ثم يأتي المريض بعد أسبوع بنفس الأعراض وبذات الحالة الصحية المتدهورة؛ فلابد أن نتشارك جميعا – نحن القائمون على المنظومة الصحية بالكامل- نسبة من الحمارية تجعلنا لا نجزع من جنسنا الجديد، الذي نوصم به عدلاً.

ثم أردف قائلا:

ـ إن العالم العربي الكبير «أبوالقاسم الزهراوي» كان يقول "أنه ما كتب قط دواء مُسهلًا لمريض إلا وبات طيلة ليله يفكر ما عساه طرأ على مريضه هذا من أعراض وأضرار". أما طبيبنا البشري اليوم فلا يلتفت لغير المائة جنيه التي ينتزعها من قوت الغلابة نزعًا. والصيدلي لا يهمه إلا بيع أكبر قدر ممكن من الأدوية. ويا حبذا لو كانت هذه الأدوية من الأدوية الأصلية الغالية، أو التي أوشكت على الانتهاء. إن المنظومة الصحية في مصر أصبحت منظومة ربحية في المقام الأول والأخير.

ورغم المنطق الواضح الذي تحدث به هذا الزميل إلا أنني لم آخذه مأخذ الجد. فأنا لا أميل إلى الآراء التي تثبط العزائم ولا أحب النظرات المتشائمة للأمور. وإذا افترضنا أن الوضع سيء إلى هذا الحد الذي تحدث به، فأنا منذ فترة -بناءَ على ذلك- قد أخذت خطوات واسعة للخروج من مستنقع الحمارية هذا. ولو أنني استطعت اليوم تصحيح خطأ واحدًا من الأخطاء الكثيرة التي وقع فيها الطبيب ولم يلتفت إليها الصيدلي، لاعتبرت هذا تقدمًا مرضيًا، يجعلنا نقترب من هدفنا ولو بمقدار نصف خطوة. فلنبدأ إذن على أي حال وأمرنا إلى الله.

أما إله الطب عند الإغريق الذي لا يتوقف عن إصدار الأوامر وإعلان التعليمات وراء التعليمات، فهو يرى أن الصيدلة لعبة يمكن إتقانها لمن تزداد ممارسته لها. وهو فوق ذلك لا يقرأ بحثًا واحدًا جديدًا، بل يكتفي بمعلوماته التي تعلمها أثناء دراسته التي انتهت منذ تسع سنوات. تلك المعلومات التي نسى نصفها وضاعت ملامح نصفها الآخر.

لكن هذا النصف المشوش غير الواضح كافٍ ليدير صيدلية ويتعامل على خلق الله به.

كان (عم جابر)، بواب العمارة الملاصقة للصيدلية، يأتينا من حين لآخر. الناس البسطاء الغلابة هم أكثر الناس تعقيدًا حين يأتون ليصفوا الداء الذي يصيبهم، وهم أعجب المخلوقات حين يطلبون أدويتهم.

ـ اعطني دواء الإمساك..

فتذهب مسرعًا ناحية مشتقات نبات السنامكي مثلاً وتخبره بأن يشرب كوب ماء كبير معه ليلين البطن؛ وقتها يفزع ليقول:

ـ أنا عايز الدواء إلى بيعمل إمساك.. إللي بيوقف الإسهال..

وحين تتجه - وأمرك إلى الله - إلى المستحضرات التي تمسك المعدة وتوقف الإسهال وتأتيه بكيس فوار يقول لك وقد نفد صبره:

ـ أنا عايز دوا..

ـ ما ده دوا..

ـ الشرب.. الدوا الشرب.

وكأن كل هذه الأدوية على الأرفف بعضها فوق بعض من أقراص وكبسولات ودهانات وأقماع وحقن ليست بدواء.. الدواء فقط هو الشراب.. أضف ذلك إلى حصيلتك المعرفية، تلك معلومات جديدة لم يزودك بها معيد الفارماسيوتكس في الكلية.

على أي حال كان (عم جابر) رجلًا طيبًا، يأتي كل حين ليأخذ المعلوم الذي يشد العصب ويقضي على الإرهاق ويزيل آثار التعب والنصب..

وأكثر من مرة كان الدكتور (إسكلبيوس) يمد يده لدرج من أدراج المكتب ليخرج له كبسولة بيضاء ويعطيها له قائلا:

ـ كبسولة واحدة الصبح بعد الفطار.. واحدة بس يا (عم جابر) لحسن تضيع مننا.. دي أقوى حاجة نزلت السوق..

يمد (عم جابر) يده متحفزًا وكأنه يمدها تجاه طوق نجاة وجده صدفة وسط بحر لجي غاضب، ويرد وقد تهللت أساريره تهلُل من وضع يده على سر الوجود:

ـ يعني دي هتجيب من الآخر؟

ـ عيب يا (عم جابر).. روح وابقى إدعيلي..

ثم يخرج الرجل المسكين مخترقًا الأرض بالغًا الجبال طولًا..

تكرر الأمر أكثر من مرة.. وكان (عم جابر) يُثني دومًا على تأثير الحبة السحري. فهو يستيقظ مبكرًا ويظل يعمل طول النهار ويبقى في ليله الكثير والكثير دون أن يشعر بإعياء أو يغلبه الإجهاد.. وفي كل مرة أثناء فورة الحماسة يعرض (عم جابر) مالًا، محاولًا بهذا المال أن يجعل الدكتور "يتوصى" ويعطيه الحبة الأصلية. لكن (اسكلبيوس) كان يرفض المال في إباء؛ فيحصل على دعوة وغسلة مجانية لسيارته.

ظننت من وصف (عم جابر) أن هذه الحبة ربما تكون نتاج طقوس الكابالا السحرية بحق، أو أنها ضرب من ضروب السيمياء، أو أحد تلك الوصفات التي ترجع الشيخ إلى صباه. وذات مرة استحثثت (اسكلبيوس) على إخباري بهذه الحبة ومن أي الأماكن يشتريها وما هي المادة الفعالة التي تحتوي عليها، خاصة وأنها كانت تبدو كل مرة في الدرج مبعثرة ليست مغلفة بعلبة أو شريط، وهي منذ جئت لم تنته ولم أره يطلبها من شركة قط.

أدار (اسكلبيوس) وجهه وحرّك عينيه الشاخصتان في اتجاهات شتى ثم تحوّل إليّ وقال مقهقهًا:

ـ دي كبسولات فاضية..

كدت أتميز من الغيظ، فلست ممن يحبون الغش وبيع الأوهام للناس، تلك التجارة الرائجة هذه الأيام، لكنه قال:

ـ بلاسيبو.. وهم.. الوهم هو الدوا الوحيد الناجح فى الزمن ده..

ـ بس ده نوع من أنواع النصب..

ـ إزاي هو مش بيستخدموا الوهم في اختبارات الدوا؟

ـ في اختبارات الدواء مش في علاج الناس..

ـ بالله عليك هو ده مش أفضل ما يروح يدور على ترامادول وألا يشربله حشيش.. أنا بعتله الوهم ببلاش.. المهم إن الراجل اتحسن كتير أوي زي ما أنت شايف.

لم يكن من المنطق أن أدرس في الكلية خمس سنوات لأبيع في النهاية كبسولة فارغة تتحدى كل قوانين الكيمياء التي غرقنا فيها حتى النخاع.. لم أستطع تقدير الموقف أخلاقيًا.. أيهما أكثر أخلاقية: بيع دواء هو في الحقيقة سم بنسبة معينة أم بيع وهم لرجل غلبان يسهل خداعه؟ ترى لو أخبرت (عم جابر) عن حقيقة الكبسولات الفارغة ثم أرشدته لتخفيف شكواه والقضاء على دائه، وأعلمته خطوات وعقاقير تساعده على ذلك، أيكون ذلك أكثر فائدة من تلك الكبسولات الوهم؟

إن الأدوية تأتي بنتائج جيدة في أحيان كثيرة، لكنها أحيانًا أكثر لا تقدم ولا تؤخر.. ويبدو أن (عم جابر) وجد سبيله، فهل أعلمه بالطريق الحق الذي لا فائدة منه، أو أتركه في طريق الوهم الذي فيه كل الفائدة؟

أثناء أجازة (اسكلبيوس) التي دامت أسبوع، أتاني (عم جابر) مشيرًا بكلتا يديه إلى الدرج. لكنني قررت ألا أنخرط في بيع الوهم للناس. سوف أفعل ما يمليه علي ضميري.

ـ في دوا أحسن يا (عم جابر).. بس ده بفلوس

ـ مش مهم.. لو أحسن فعلًا يا دكتور إديهولي.. وأنا تحت أمرك.

ـ اتفضل.. ده شريط يكفيك عشر أيام.. ب ٢٠ جنيه..

ـ وده أحسن من الكبسولات إلي بيدهالي الدكتور التانى؟

ـ بكتير.. جرب بس ومش هتندم..

دفع الرجل العشرين "لحلوحا" بنفس راضية وقلب طائر وصدر منشرح.. لو كانت الكبسولة إياها عملت كده، أمال دي أم فلوس ممكن تعمل إيه؟

بالطبع لم أستطع أن أعطيها له مجانًا.. الكبسولات الفارغة لا تكلف شيئًا.. لكن هذه على عهدتي وهي مال صاحب الصيدلية ولا سلطة لي في هذا الشأن لإعفاء أحد من الدفع.. أنا فقط قمت بواجبي كصيدلي..

بعد يومين جاء (عم جابر) يتلوى صائحا فيّ:

ـ حرام عليك يا دكتور إلي عملته فيا.. الدواء قلبلي معدتي وجابلي إسهال وخلاني أهرش بقالي يومين لحد ما قربت أقطع جتتي..

ـ بس مفعوله المقوي إيه المهم؟

ـ ولا أي حاجة.. والله ده أنا شربت الكبسولة من هنا.. واترميت على السرير من ساعتها.. مغص وتقطيع وإسهال وهرش.. يا دوبك لسه خارج دلوقتي..

ـ معلش يا (عم جابر).. وقف بقى العلاج طالما جسمك مجاش عليه.. الظاهر عندك حساسية من أحد مكوناته..

ـ من غير ما تقول.. وعوضنا على الله في العشرين جنيه..

لم أستطع أن أنبس ببنت شفة.. لن يفهم قط أن من طبيعة الأدوية أن بعض الأجسام تتأثر بأعراضها الجانبية أكثر من البعض الأخر.. ولن يدرك أن الحساسية من أحد مكونات الدواء صدفة بحتة ليس لي يد فيها.. ولن يصدق لو أقسمت له بأيمان الله جميعًا أن هذا الدواء أفضل من ذلك الوهم الذي كان يأخذه.. لكل ذلك سكتّ..

ـ يلا أنا إلى أستاهل.. منا كنت ماشي على الكبسولة إياها زي الوحش.. إيه إلى خلاني أطمع بس.. أهو الطمع قلّ ما جمع.. الله يكرمك يا دكتور (أحمد)-اسكلبيوس-

ـ معلش يا (عم جابر) أنا حاولت أساعد والله..

ـ يلا الحمد لله.. إديني بقى كبسولة من الدرج الله يعمر بيتك.

وبتلقائية وبدون وعي، وجدت يدي تتسرب مني لتفتح الدرج وتأخذ كبسولة وتدسها في يده.. في اليوم التالي جائني مهللًا فرحًا يشكرني؛ فابتسمت له واعتذرت مرة أخرى لكنه بنفس سمحة قال:

ـ ولا يهمك يا دكتور.. كلنا بنتعلم.. مفيش حد بيتولد كبير.

فهمت ما يقصده ضمنيًا، فأنا صيدلي مراهق لم أتعلم بعد أسرار الصيدلية وعوالمها، وليس للامتياز الذي حصلت عليه كتقدير عام وقت تخرجي فائدة.. لست أدري لمَ تذكرت بسرعة (النظرية الحمارية) التي ابتدعها زميلنا إياه.. إن الصيدلي الحق هو (اسكلبيوس) الله يمسيه

بالخير ويرجعه بالسلامة.. إنه الحمار الكبير الذي يجب أن نتعلم منه.. دعونا من كل ما درسناه في الكلية فلا رجاء منه يُنتظر.. بمجرد أن أرجع إلى البيت سوف أمسك بكتاب (توفيق الحكيم) (الحمير) لأقرأه.. هل هناك علاقة بين "حمير" "توفيق الحكيم" و"حمارية" صديقي هذا؟ سنكتشف ذلك على كل حال في الوقت المناسب..

وحين كان (عم عبده) و(عم حسن) و(عم سيد) يأتون يطلبون دواء منشطًا ومقويًا عامًا، كنت بشكل لا إرادي أمدّ يدي إلى الدرج لأخرج هذا الإكسير الذي لم يكسر بنفس أحد فيهم قط...

** ** **

الحادث الرهيب

١

من عادات الحياة الخبيثة أنها درجت على أن توقع البعض في شراك البعض، وأن تجعل لهو شريحة من القوم يحطم حياة شرائح أخرى.

فلم يكن يخطر ببال سائق هذا الميكروباص أن ليلته ستنقضي بعكس ما خطط له. إنه ينزل يومياً من بيته حوالي الساعة الثانية عشرة صباحًا، لينقل نقلتين بسيارته لتوفرا له شيئًا يقيم به أوده وأود عياله. هو يفضل ساعات الليل المتأخرة حيث تكون الجموع قد انفضت، والشوارع قد سلكت، فيتنقل من مكان لمكان في خفة ويسر، بعيدا عن ضوضاء المدينة نهارا. ورغم أن خطوة الزبون ليلًا عزيزة، إلا أنه يعالج قلة الزبائن بسرعة الحركة محاولًا رأم ما ينقطع.

هذا هو نهجه البسيط في الحياة، وهذه هي خطته المتواضعة التي ألزم بها نفسه، وتلك هي الأحلام التي لا يحاول قط تعديلها منذ تزوج ورأى المسئولية تتجسد أمامه في أشكال إنسانية صغيرة تجرى على قدمين وتطمح في حياة أفضل وأجمل مما عاشها هو.

ذلك أفق الرجل الذي لا يتجاوز حد توفير القوت على الكفاف، وبعض الطمع القليل المشروع الذي يرنو إلى إبعاد أولاده عن المزالق التي لم يسلم منها منذ طفولته.

لم يفكر قط في أن القدر قد يتربص به. هو اعتاد على هذا العمل المرهق الذي يحرم الإنسان من أعظم النعم قاطبة، نعمة النوم

والراحة والاسترخاء ليلًا. لكن ما بال هذه الليلة كئيبة غريبة؟ شيء ما يُثقل على صدره. حنين دافع يغمره، يحثه على العودة والجلوس مع أولاده وقضاء باقي ليلته بينهم. فلينته من نقلته هذه و"يأخذ بعضه" إليهم في أسرع وقت ممكن.

كان يقطع شارع الخليفة المأمون في تمام الساعة الواحدة. لا يعقل أن يجد في هذا الشارع، بينما يمشي ملتزمًا بطريقه، سيارتين فارهتين تتسابقان في الاتجاه المعاكس له تمامًا. سرعتهما جنونية، وكذلك سرعته، والليل ضبابي والأنوار الناظرة من أعالي الأعمدة الليلية، والأضواء المنبعثة من كشافات السيارات المعاكسة له.. كل هذا يجعل المرء يهذي وكأنه في حلم، لا بل في كابوس.

هل يمكن الاستيقاظ منه؟ لا شيء يتفاعل معه لكي ينهض صارخًا مستغيثًا بزوجته. إنه إذن واقع.. واقع لا ينبئ بخير فيما يبدو.

السيارتان قادمتان، تقتربان أكثر من اللازم، لا شيء يفيد ولا حتى مكابح السيارة، إنها صنعت خصيصا لكي لا تعمل في مثل هذه اللحظات. من الواضح أن الأشياء تتوقف عن عملها ولا تلتزم بما صنعت من أجله في أكثر الأوقات احتياجًا لها. إن الأخطاء تحدث في الأوقات الصحيحة تماماً، لذلك فهي تهيمن على المجريات أكثر من الصواب. أما الصواب فهو يقع بالضبط في الأوقات الخطأ، لذلك فلا أثر له على الإطلاق.

كل هذا يلتمع في عقله بأسرع مما نكتب أو نقرأ.. لكن ما الحل؟ هل يفيد الانعطاف الشديد؟ لا أحد يظن ذلك. إنه محصور تماماً بين السيارتين، والطريق بينهما لا يتسع له.

في لمحة خاطفة صدر صوت الارتطام شديدًا مهيبًا، ولم يسمع السائق بعد ذلك شيئاً، لا شيء على الإطلاق.

رجال الأمن يهرعون، ورجال الإسعاف كذلك. طوارق الليل يتجهون مباشرة نحو السيارة التي دارت ثلاث دورات حول محورها قبل أن تصطدم بعامود النور، ومن ثم ترتطم ببوابة المستشفى التخصصي.

إنها لم تعد سيارة بالمعنى الدقيق للكلمة، بل علبة تونة حطت عليها أقدام فيل أفريقي ثائر. المهم أن هذه العلبة تحوي أشخاصًا عدة لابد من إنقاذ بعضهم على الأقل. الدماء المتناثرة والأيدي المبتورة والرؤوس المتدلية تخبرنا أن ثمة أرواح كثيرة زهقت. حقيبة اليد الواقعة هذه تكاد تصرخ مخبرة عن صاحبها الذي كان يتحرق شوقا للقاء والدته التي لم يرها منذ ثلاثة أشهر ونيف.

المنظر العام يوحي بمأساة حقيقية لا يستطيع "سوفوكليس" أو "شكسبير" تخيلها، ببساطة لأنه لم يكن هنالك هذه السيارات المندفعة بجنون يقودها إنسان مختل عقلياً في عصري هذين العَلَمَين.

في هذه الحالات يكون للمصريين شئون.. من المحقق أن عدد الأيدي التي تمسك بالهواتف المحمولة لتصوير المشهد الأليم أكثر من الأيدي التي امتدت لإنقاذ المنكوبين. بعض الناس يذهب لشأنه حاكيًا القصة،

كيف وقعت الحادثة، ومَن المخطئ من وجهة نظره الفلسفية التي لا يلزم أن تتماشى مع المنطق. يذهب مذهب القول بدلًا من مذهب الفعل. طبعًا سوف يحكي القصة أكثر من أربعين مرة لكل من يلقاه طيلة الشهرين القادمين، وكأنها نكتة ظريفة.

إنه نفس المنطق العقيم الذي يتحكم في المصريين حين يكتبون على الفيس بوك: مات أبي.. أو أختي في المستشفى نسألكم الدعاء..

من البديهي أن الوقت الذي يتوفى فيه والدك أو تدخل أختك فيه المستشفى ليس مناسباً على الإطلاق لتدخل فيه على الفيس بوك لتعلن عن بلواك مهما كانت.

الأغرب من كل هذا أن عددًا لا بأس به من الناس سوف يُعجبون بالأمر فتراهم يضغطون على زر "أعجبني"، وكأنهم يفرحون لهذا المصاب أو تلك الحادثة. إلى هذا الحد أصبح الناس لا يعرفون ماذا يفعلون في أي وقت؟

في دقائق كان قسم الحوادث بالمستشفى التخصصي قد امتلأ، البعض يمكن إنقاذه والبعض الآخر يفضل عدم تضييع الوقت معه. الوقت حرج والثواني تصنع معجزات. هذه هي الحقيقة التي تغيب دائمًا عن العقل المصري، من المهد إلى اللحد.

إنه لا يستوعب قط فقه الثانية والدقيقة، لكن الظروف تجعله يستوعب أحياناً أشياء سرعان ما ينساها.

٢

لم يكد صيدلي النوبتجية الليلية ينهي كتابًا كان يقرأه، حتى وجد ممرضات قسم الحوادث يحطون عليه كما العُقاب تهبط بسرعة على فرائسها.

إن قائمة الدواء المطلوبة طويلة، والممرضات يحتجن لها بصورة عاجلة غير رسمية. لا فرصة لإجراء الخطوات الروتينية المملة التي يتطلبها صرف الدواء. أحيانًا كثيرة يتزمت البعض طلبًا لأوراق معينة، موصيًا بإمضاء محددة، على ورقة ذات لون مقرر، بها صيغة حكومية محفوظة. هذه الصيغة لا يحفظها إلا الأستاذ مختار الذي سافر في أجازة صيفية، سوف يتغيب فيها لأسبوع كامل. لذلك نجد- كثيرًا- جثثًا ملقاة أمام أبواب مستشفيات التأمين الصحي. إن يوم الحكومة بسنة ونفسها طويل بطول نهر الأمازون، ولم يبق في أعمار المرضى إلا سويعات وأنفاس معدودة.

إجراءات الصرف صارمة، والتعليمات قاطعة. لكن ماذا عن هذه الأرواح التي سوف تغادر أجسادها إذا نحن ماطلنا؟ ملعون أبو الأوراق والتعليمات الحديدية التي تجعلنًا عبيدا للإمضاء والختم واللائحة. ملعون أبو الورقة والقلم اللذان يقصفان أعمار أناس أبرياء وجدوا أنفسهم في ظروف دقيقة كهذه.

بالصدفة، كان قد أنهى قراءة قصيدة "فظائع الأوراق" لـ "ماياكوفسكي" التي يقول فيها:

نستبدل العقول بالتعليمات

ولا أحد يشعر بفداحة الخسارة

ينحط الرجال إلى سعاة

يركضون

في خدمة الأوراق

التي تحولت إلى مركز القيادة[١]

قائمة الأدوية تطول، لكن مبدأه ثابت لا يحيد. إنها تطول أكثر فأكثر.. لا تنس أن هذه الأدوية تخرج بشكل غير رسمي.

لا يهم، المهم فائدة المرضى وإنقاذ الأرواح المعلقة بين السماء والأرض.

روح تتحرر من جسدها.. اللهم رحماك، فلنركز على الآخرين.

بعض الأدوية الهامة جدًا غير متوفرة. في أي لحظة من لحظات عمرنا الطبي في هذه البلد لابد أن تجد مئات الأدوية الأساسية ناقصة وغير متاحة. اللحظات الأخرى تعج بالأدوية غير المتوفرة لضعف إمكانيات المستشفى المادية. بعض الشركات توجهت بالفعل إلى المحاكم للمطالبة بمستحقات مالية مرّ على تحصيلها شهور.

[١]من ديوان (غيمة في بنطلون وقصائد أخرى)، ترجمة رفعت سلام

لا يهم.. فلننظر ماذا يمكننا تقديمه والمساعدة به على كل حال. هناك روح تتردد بين الخروج والبقاء، الإسعافات الأولية وعلى رأسها الـ (CPR)[1] قد تنفع أحيانا، لكن ليس في هذه الحالة عمومًا. إنها النفس الثانية التي تأبى الانصياع لأمر المسعفين، وكأن الأرواح تسعد بخروجها لعالم جديد، عالم الوفرة حيث لا نقص ولا قصور ولا تعقيدات.

هناك، يكفيك أن تنظر إلى ثمرة الفاكهة لتتدلى وتصبح بين يديك. أصعب ما يُطلب منك هو أن تفكر فقط فيما تريد لتجده متجسدًا أمام ناظريك. إنه عالم الوفرة واللا شيوعية. هناك لا تجد سيارتين عابثتين تحطمان مستقبلك.. لا تجد أدوية ناقصة تجعل نسب شفائك ضعيفة.. لا تجد أدوية أصلًا ولا شفاء لأنه لا أمراض من الأساس ولا بلاءات.

الأرواح تتداعى. هاهي ضحية جديدة، حالة وفاة إضافية، بل حالتان. الأمور تجري بسرعة رهيبة، ولا أقدر على تتبع ما يخرج وما يدخل. لم يعد من الممكن متابعة القائمة، التي تتحول من قائمة للأدوية إلى قائمة بالجزاءات التي ستحط عليّ. فلتمتد كيفما تشاء، المهم الحالات الباقية.

لكن حالات الوفاة تتوالى. يبدو أن المشكلة ليست فقط في الإجراءات القانونية، بل في المنظومة العامة كلها.

CPR[1]: عملية إنعاش القلب و الرئتين، و تتم في الحالات الطارئة للحفاظ على وظائف المخ سليمة كما هي.

في السائق، في السيارتين العابثتين، في المستشفى، في رجال الأمن، في رجال الإسعاف، في قسم الحوادث، في ممرضيه، في الكوادر الطبية، في أنا نفسي، في الصيدلية.

لم أجد أبدًا منظومة فاسدة على مثل هذه الدرجة من التكامل الرائع. لو وُجدت منظومة صالحة تتكامل فيما بينها مثل هذا التكامل، لتغير كل شيء. لكن للأسف ليس هناك هذه المنظومة ولا ذلك التكامل. إنك لا تجد الأشياء الصالحة تعمل فيما بينها بتناغم كما تفعل الأشياء السيئة. لا تجد المصلحين يتكاتفون سوياً، لكن تجد المفسدين متآزرين في فسادهم. لا نسمع أن العظماء أصبحوا يدًا واحدة، لكن من المحتمل رؤية إتحاد يشمل كل المجرمين معًا.

وانتهت الليلة. الأمر ليس بهذا السوء المتوقع. أمكننا بفضل الله إسعاف حالتين من أصل ست. على وجه الدقة، استطعنا تأجيل أمرهم بعض الشيء، فقد نزلا بالرعاية وحالتيهما غير مستقرة بعد. فلندعُ الله أن ينجدهما.

أما القائمة الطويلة، الخاصة بالأدوية، فقد ظهر لي بعد أن هدأت الدنيا عجز بقيمة ألف جنيه. لا أدري بالضبط موقفي بعد، لكن يبدو لي أنه ليس جيدًا على الإطلاق. سوف يوبخونني على الأوراق، وعدم إتمام الإجراءات، وربما يخصمون هذا المبلغ - كله أو بعضه- من مرتبي.

لكن هذا لا يهم، المهم هو المبدأ. المبدأ الذي سيخرب بيتي.

الأهم الثبات على المبدأ، هذا الثبات الذي سيؤول بنا - في وسط هذا العبث اللجي - إلى الخراب الحتمي.. لكن هذا أيضا لا يهم.

** ** **

بنسلين

لا ندري متى بدأت الأزمة. استيقظنا ذات يوم لنجد دواء البنسلين قد اختفى من السوق، ولا أثر له. كل الأسماء التجارية المختلفة لم تعد موجودة. عبثاً حاولنا الاتصال بجميع الشركات على اختلافها؛ لكن الرد دومًا كان واحدًا: غير موجود!

المرضى يأتون إلينا جماعات ووحدانا؛ فنقلب لهم شفاهنا، ونقطب جبيننا، وتزوم أعيننا دون فائدة. في هذه الظروف، تخفي الصيدليات الكميات القليلة المتواجدة لزوم المجاملات والعلاجات الشهرية التي تدر ربحًا وفيرا، والذي منه. لابد من التضحية دومًا بمن لا ظهر له في هذه الحياة، والتخلص من الفقراء الذين لا فائدة ترتجى من ورائهم. إنهم "اللامُجديون"-الذين لا جدوى منهم- على حد تعبير (سيمون دي بوفوار)[١].

أتذكر جيدًا كيف ثارت ثائرة صاحب الصيدلية التي أعمل بها عندما صرفت، لحالة حرجة، حقنة بنسلين بقيت عندنا منذ فترة، وكيف أحبط عملي هذا صرف طلبية كاملة كبيرة طلبها أحد الزبائن المُحمّلين، مشترطًا وجود البنسلين ضمن الأدوية، وإلا فلا داع للدواء كله. إن كفة الأغنياء فقط هي الراجحة في هذا العالم العابث.

[١]سيمون دي بوفوار: كاتبة وجودية فرنسية، خطيبة الفيلسوف جان بول سارتر، لها مسرحية قيمة اسمها "اللامجديون" أي هؤلاء الذين لا نفع لهم.

كنت أقف ساعتها أمام العيون الآملة المتوسلة التي تسعى إلى نول

علبة واحدة فقط، فالحالة صعبة والشكوى مريرة. لكن ردي المخيب للآمال، المثبط لكل رجاء كان يخرج ليرد كل ذلك على أعقابه.

تصل مع الوقت إلى ترجيح كفة البعض مقابل البعض. الأغنياء أولى من الفقراء، الأطفال مقدمون على العجائز، المتزوج المعيل أبدى من الأعزب الوحيد.

هذه هي المعادلات التي نستخدمها في بلادنا، معادلة "بأيهما نضحي أولًا". في حين يستخدم الآخرون -هنالك على الشاطئ الآخر- معادلات (أينشتين) و(نيوتن) و(شرودنجر) و(هيزنبرج) لتفجير عالم متكامل من الرفاهية، يصبح فيه الإنسان -من حيث هو إنسان، بغض النظر عن حالته المادية أو الاجتماعية- سابقًا لكل اعتبار آخر.

واستمرت الأزمة، وتفاقمت الشكوي دون حل. يجيء الناس ويذهبون قائلين في استسلام:

ـ طب يغلوه وينزلوه تاني..

وعبثاً أحاول إفهامهم أن الأمر لا يتعلق برفع سعر الدواء، وإنما هي مشاكل تخص التصدير والاستيراد، أو ركود أصاب البلد بعد الثورة. فنحن لا نصنع دواءَ واحدًا، وإنما نستورد المادة الفعالة، ومتفضلين، نقوم بتعبئتها.. فيرد أحدهم متيقنًا:

ـ أبداً والله.. هو الموضوع كله لعبة اقتصادية وإحنا بنروح ضحيتها..

بعد فترة تصبح رفاهية استخدامنا لمعادلة "بأيهما نضحي أولاً" غير

متوفرة، ولا نقدر عليها. فالكميات الزائدة نضبت هي الأخرى وليس ثمة علبة واحدة لإسعاف أحد. تصبح اللعبة كلها خارج أيدينا نحن، معلقة بأيدي القدر. فبأي منهم يا رب سوف ينزل قضاؤك أولًا؟

لكن الأغنياء دائما خارج هذا العبث تمامًا. إنهم لن يعدموا قريبًا أو صديقًا يأتي من الخارج محملًا بكميات من الدواء، بأسعار عالمية. وربما بعد أخذ كفايتهم يتاجرون بما تبقى، مستغلين حاجة ذوي العوز والفقراء.

تذكرت صديقًا قديمًا لي كان يقول:

- في أوروبا تم تطوير تقنيات استخدام الخلايا الجذعية. مع الوقت سوف تقوم ثورة في عالم الطب. ربما يتم وقتها استعادة يد مبتورة لصاحبها بزرعها مرة أخرى. ولن يُمسي قطع الحبل الشوكي مشكلة يخشاها الأطباء. سوف يصبح للجمبري استخدامات أخرى خطيرة، ليس أهمها أكله واستخدامه كمقوي جنسي فسفوري ليالي الخميس، وليس آخرها استخدام غشائه الخارجي لإيقاف النزيف الشديد الذي يعقب حوادث السير الكبيرة. إنه أسرع من أقوى مضادات النزيف المستخدمة في حالات الرعاية الحرجة.

الغريب أنني كلما تابعت حديث صديقي هذا، تعجبت من هذه الدولة التي ينفَق فيها أشخاص لعدم توافر مادة البنسلين التي تم اكتشافها عام ١٩٢٩.

أحسست في كلام صديقي بتلميحات سياسية ضمنية، خاصة حين لوى

شفتيه وقال:

ـ والناس تموت في أفريقيا من طفيل الاونكوساركوزيس اللعين، الذي يسهل علاجه.

فأرد في خيبة:

ـ ليس معهم ثمن علاجه البسيط، والشركات ليست مستعدة لخوض دور الشهم الحان الذي يعطف على المساكين.

بعد أن سأم الناس الشكوى، وضاع الرجاء؛ قرر أصحاب الرأي توفير الدواء. هرعنا كلنا لنوفر أكبر قدر ممكن منه، حتى أنني - على غير العادة - طلبت ثلاثين علبة، ولم أكن قد وفرت منه من قبل أكثر من خمس. لكن - وحتى لا تؤول بنا الظروف إلى ما آلت إليه - وفرت هذه الكمية على سبيل الاستثناء. فلا أحد يدري متى ولا أين ولا كيف يمكن أن ينقلب الحال، خاصةً وأن كل حالة نقص لدواء تعقبها توابع، يظهر فيها الدواء ثم يختفي.

توقف الناس عن طلب الدواء، وبقيت العلب الثلاثون كما هي، لا تتحرك طيلة شهرين. وقتها - ومن باب الفضول - جاء في نفسي أن أراجع تاريخ الصلاحية؛ فوجدت ما وجدت. فالكمية كلها ستنتهي صلاحيتها في غضون شهر واحد. وحيث أن تاريخ صلاحيتها سنتان من تاريخ الإنتاج، فهذا يعني أن الدواء كان موجودًا منذ سنة وتسعة أشهر؛ ما يفهمني أنه في الوقت الذي داخ الناس فيه وملّوا من البحث عنه، كان الدواء موجودًا في مكان ما، في ركن ما من أركان هذه البلاد.

ما يجعلني أفكر في أن شخصًا ما حاول إخفاء الدواء عن أناس تتألم وتتعذب وربما تموت لغيابه. كل هذا يدفعني دفعًا إلى الاعتقاد بقول الرجل الذي أخبرني ذات يوم:

ـ أبدا والله هو الموضوع كله لعبة اقتصادية، وإحنا بنروح ضحيتها..

وعبثاً حاولت إفهام صاحب الصيدلية مبرراتي النبيلة التي حثتني على توفير هذا الكم من الدواء. وعبثاً لم يفهم صاحب الصيدلية، وحقًا "لبست" الكمية كلها.. وصدقًا تم خصم ثمنها من مرتبي الخاص.

** ** **

توكسيك

إن نوبتجيات العمل بالصيدلية بعد الساعة الثانية عشر صباحًا ليست مما تعافه النفس، كما قد يتبادر إلى الذهن. الليل بسط سيطرته بالكامل ونحن استسلمنا له بكل بساطة وبدون مقاومة. الشارع الذي تتواجد فيه الصيدلية غارق في الظلام، ليس يطرقه في هذه الأثناء سوى كلب ضال أو قطة مشردة، ولا بشر إلا فيما ندر. لهدف ما صمم صاحب الصيدلية على جعلها تعمل حتى الثالثة فجرًا، تمهيدًا لجعلها تعمل أربع وعشرين ساعة. إن ضبط محطة الراديو على إذاعة القرآن الكريم لسماع تواشيح وابتهالات (نصر الدين طوبار) للذة لا تدانيها لذة، اللهم إلا لذة الاستماع لأغنيات أم كلثوم في نفس التوقيت. في كليهما شيء ملائكي لا ينتمي لهذه الأرض. ستظل أم كلثوم خالدة مهما بدا الأمر في أيدي بعرور وشعبان ومن على نهجهما.. تلك نزوات سرعان ما تستفيق منها الشعوب.

ستبقى أم كلثوم خالدة حتى وإن قلّت البركة وامتنع الحب واختفى العشاق. لن تهن قط سطوتها، التي لا ندري من أين تحديدا تأتي؟ أمن صوتها؟ أمن كلمات أغانيها؟ أمن ألحانها؟ أم من تلك التوليفة الإبداعية كلها؟ لا ندري! لكنها ستبقى حتى بعد أن ينتهي الحب ويرفع يديه مستسلمًا ويخر آخر عاشق صريعًا.

لذلك لا أجد ما يجده أقاربي وأصدقائي من دهشة وعجب عندما يجدونني مندمجًا غاية الاندماج مع أم كلثوم التي تشدو بالحب والعشق والهيام، رغم مشاكلي الخطيرة مع خطيبتي التي بات أمر

فسخ خطبتي منها مسألة وقت لا غير. أم كلثوم لا تعبر عن علاقات الحب السطحية بين خطيب وخطيبته. إنها تغني من أجل الكون.. سر من أسرار الوجود.. لغز يربطنا بجذورنا التاريخية القديمة التي لم نشهدها وحتى لم نقرأ عنها في كتب التاريخ.

الواحدة بعد منتصف الليل، النقطة الزمنية التي يطغى فيها الليل ويصبح دكتاتورًا مهيبًا، لا تُرد له كلمة، ولا يُشق له غبار.

شعور غريب يردني إلى جملة قالها "العقاد" ذات مرة لصديقه:

ـ إننا نكبر بالليل جدًا يا صاح، فأنت تشمل الدنيا بالليل وهي تشملك بالنهار.

إنك قادر على استبصار حتى بلاد ما وراء النهرين، وما وراء وراء النهرين. أنت شجرة أصلها في الأرض وفرعها في السماء، تستطيع رؤية وتخيل كل شيء. تسمع تأوهات امرأة تجلس تحت زوجها في ركن ناء من أركان التبت البعيدة. لا شيء يُضيع عليك كل هذا إلا صوت هاتفك المحمول معلنًا عن اتصال خطيبتك التي لا تستطيع إلا جعل حياتك جحيمًا أرضيًا.

أتجاهل الأمر. أحاول التركيز مع أم كلثوم. أتذكر كيف كنت وأنا صغير أستهجن استمتاع أبي بأم كلثوم، كنت أظنه يحب امرأة ما على أمي.. لابد لمن يسمع أم كلثوم أن يكون متيمًا هائمًا في ملكوت الحب. وحيث أن الأمور بين أبي وأمي تبدو روتينية عادية، تخيلت وقتها أن أبي ربما يمارس حبًا ما في مكان ما مع شخص غريب ما.

هكذا كان منطقي دقيقًا لكن استنتاجي ليس صوابًا. كون الأمر دقيقًا لا يعني قط أن ما يترتب عليه صواب، ولا تعني سلامة المنطق صحة المسألة. كما أنه لا ضرورة تجعلنا نظن قطعًا أن اعتلال المنطق يعني ضعف الموضوع قيد النظر.

الهاتف مرة أخرى، بصوته التكنولوجي الكئيب. كان الحب قديمًا لأنه لم تكن وقتئذٍ تكنولوجيا. التكنولوجيا تقتل الحب. البساطة وقلة الحيلة وخيبة الرجاء والعراقيل تشعل الحب وتجعله لهيبًا. لا أتذكر من قال قديمًا: إن الحظ الأسوأ وتدهور الأحوال يزيد نيران الحب أكثر فأكثر[1]، لكنه رجل حكيم فيما يبدو لي. المشاعر قديمًا كانت تتجسد بالتعب والكد والعرق، بالصبر والمثابرة والكفاح. أما الآن فهي مجموعة حروف على آلة صماء، يرسلها الحبيب إلى حبيبه عبر الهاتف أو الحاسوب.

أجعل الهاتف صامتًا وأحاول الرجوع إلى تأملاتي الأولى. لكن إلحاحها البغيض- كخلية نحل تهاجمك وأنت أعزل عارٍ تماما حتى من أقل القليل الذي يستر عورتك- يحيل ذلك مستحيلًا. الرد إذن وبكل تتابعاته وما يترتب عليه أسهل، رغم كل شيء.

[1] المقولة للفيلسوف الروماني (سنيكا) في مسرحيته الجميلة (هرقل فوق جبل إتنا).

ـ أيوه.

ـ أكتر من عشرين اتصال ومش عايز ترد؟ للدرجادي مش عايز تسمع صوتي؟

ـ مش عايز أسمع كلامك.. مش مش عايز أسمع صوتك.

ـ ليه وهو أنا كلامي بيخنقك أوي كده؟

ـ راجعي مكالماتنا آخر ٣ شهور وشوفي كام مرة قفلنا واحنا متخانقين وزعلانين ومش طايقين بعض.

ـ وإيه إلى مخليك مستحمل ده كله إن شاء الله؟ ما نفضها سيرة أحسن وكل واحد يروح لحاله.

ـ إلي تشوفيه.

ثم أغلق - للأسف- الهاتف في وجهها، رغم كراهيتي لهذا الفعل. اعتدتُ على فعل هذا بمنتهى الجرأة، وهي عرفت كيف تجعل هذا الفعل مسألة مستقلة بعيدة كل البعد عن كرامتها. إنه التطور كما تعلمون. قد يستخدم (ريتشارد دوكنز)[1] هذا الأمر كبرهان حقيقي على أدلته التي يجمعها من هنا وهناك لبث الروح في نظرية التطور التي يُعاد خلقها من جديد.

[1] عالم بيولوجيا وأحد أعلام الفكر الإلحادي الجديد، وله مؤلفات عدة وسلاسل أفلام وثائقية لدعم نظرية التطور.

على الإنسان أن يطور من نفسه للسير دائمًا إلى الأمام في الطريق الذي يحفظ له البقاء، حتى وإن امتلأ هذا الطريق بالشوك والغار.

في الواقع لم أخترها، بل هي من فعلت. جاءت تسعى إليّ.. صارحتني بالحب... لم أكن وقتها جاهزاً ولا مستعدًا، لكن تشجيعها وحثها لي جعلني أقبل. ولأسباب إنسانية بحتة لم أستطع صدها أو ردها.

الحب يجعلنا حمقى والعشاق لا يرون الحماقة التي يرتكبون، كما أخبرنا عمنا "شكسبير". لذلك فقد كانت هي حمقاء حين أحبتني، أو حين ادعت ذلك. وكنت أكثر حمقًا حين أشفقت عليها. لـ (ستيفان زفايج) قصة اسمها (حذار من الشفقة)، تحذرنا من الانصياع وراء الحب من باب الإشفاق، أو لأمور إنسانية.

لكننا -رغم حبها وإنسانيتي- تحولنا إلى حيوانين مفترسين، أسدين يحاولان فرض سيطرتهما على منطقة ما، ولو حتى بطرق تشبه التبرز والتبول على حدود المملكة. كلانا يريد تقييد الآخر والاستحواذ عليه.

"عقدة ليليت" القديمة تتجسد بوحشية في هذه الأنثى العجيبة. فإذا كانت ليليت[١] قد أرادت أن تعلو زوجها حين يجتمعان، فإن خطيبتي تريد أن تغتصب زوجها، أن تركبه، تضربه بشدة وكأنها شخصية مازوخية من شخصيات الروائي (لوبولد فون ساشر ماسوش)[٢].

[١] ورد في التراث اليهودي أن ليليت زوجة -آدم قبل حواء- أرادت أن تسيطر عليه جنسيًا وأن توكله بحمل أعباء المرأة. ووصلت في تمردها حد أنها أرادته أن يعاني الحمل بدلا منها.

[٢] يتلذذ أبطال الروائي (ماسوش) بإهانة الشريك الجنسي لفظيًا وجسديًا.

إن الإستروجين الذي يجري في عروقها لا يمكن أن يكون من ذلك النوع الذي درسناه، المسئول عن ترقيق طبائع الأنثى. بل هو حمض الكبريتيك المركز، يشتعل بداخلها ويشعل معها ما حولها.

وافق والدها بادئ الأمر، حين كانت رأسه تعج بتلك الأساطير التي يتداولها العامة عن الصيادلة، هؤلاء الذين يأكلونها "ولعة". فمرتباتهم خيالية، ودراستهم بسيطة سهلة لا تكلف جهدًا، وهم حين ينوون فتح صيدلية سيجدون ألف يد لألف شركة أدوية تتنافس من أجل إعطائهم الدواء مجانا، وبدون مقابل. ولو أراد أحدهم تسجيل اسمه كمدير لصيدلية ما، فسوف تصله ألفا جنيه شهريًا وهو جالس معززاً مكرماً في بيته، لا يفعل شيئًا.

هذه الأساطير وغيرها- مما لا صحة له على الإطلاق- جعلت والدها دون تفكير يوافق على الخطوبة فورًا. وحين تكشّف له كذب تلك الإدعاءات، قلب لي ظهر المجن، وبات ينتهز الفرص ليغمدني بسن المهند.

من ساعتها، وأنا ووالدها في حرب باردة مفتوحة. تشعلها هي أحياناً بغبنها، لكنها ترجع تارة أخرى كما كانت: نفوس محملة، متربصة تربص السنوريات بفريسة ما. وويل لمن يظهر في هذه المرحلة كحمل وديع ضعيف.

أما لماذا لا أضع حدًا لهذا كله؟ فلست أعرف سببًا محددًا. لكنني على وجه التقريب قد أرى ذلك ضربًا من الاستمتاع بخوض حرب باردة.

عقدة سادية في نفسي لا أمتلك سبل التغلب عليها. كما يذهب الناس أفواجًا إلى الملاهي لخوص تجربة خطرة، مدفوعين بهاجس خفي يجعلهم يدفعون الكثير من أجل الدنو من حافة الموت، دون الغرق فيه.

كما أراني أعتقد أنه من الجيد أحيانًا العيش في مستوى نفسي معين. إن تقليب الأمور يظهر أبعادًا من أنفسنا لم نكن لنراها يوماً قط لو التزمنا طوال الوقت جانب السلامة. هذا بالضبط ما جعل (نيتشة) يحث الناس للعيش على حواف البراكين الثائرة.

على هذا الأساس احتسبت تجربتي مع خطيبتي تلك، ووالدها. لكنني أعلم يقينًا أن التجربة محكوم عليها في أي لحظة بالانهيار.

لازالت أم كلثوم تشدو:

"يا حبيبي كل شيء بقضاء.. ما بأيدينا خلقنا تعساء"

لا أجدني عند سماعي هذا البيت قادرًا على تصديقه. إن الأمور تجري وفق ما نخطط له بالضبط، ولا نحصد غير ما زرعته أيدينا. يوم جاءت والدمعة تطفر من عينيها، وأخبرتني عن مشاعرها، عن ذلك الإحساس الذي لا تستطيع تجاهله والإغضاء عنه، قالت:

ـ إنت عارف يعني إيه واحدة تيجي تعترف لواحد إنها بتحبه؟

ـ يعني.. في مجتمعاتنا الشرقية يمكن يكون الأمر غريب شوية.

ـ ويا ترى إمتى واحدة ممكن تعمل حاجة ضد أعراف المجتمع؟ أظن محدش يعمل كده غير واحدة مجنونة أو بتحب.

لا يمكنني أبدا التشكيك في إحساسها آنئذً. كان واضحًا بشكل لا مراء فيه. لكنني أيضًا لا أستطيع تعقب ولا استيعاب هذا الدرب المتعرج الذي انزلقت فيه علاقتنا كجلمود صخر حطه السيل من عَلِ. كيف يمكن للأشياء أن تبدأ بهذا الوضوح وبتلك القوة لتمسي بين ليلة وضحاها بهذا الضعف وتلك الركاكة؟

لم أحبها قط. فقط اعتدت عليها، وكنت مستعدًا لحبها في مرحلة ما متقدمة. لكن المتاح وقتها – الاعتياد عليها- كان كافيًا بالنسبة لشخص صيدلي مثلي، اعتاد أن يضيع أغلب وقته بين الفارماكولوجي والعقاقير.

كنت أقول بفكري الصيدلاني: "إن أي شخصين يمكنهما التفاعل فيما بينهما إذا ما توافرت لهما ظروف محددة وحافز معين. العلاقات الحميمة بين الرجل وزوجته، الأم وطفلها، الحبيب ومحبوبه، ليست أكثر من مظاهر مختلفة لنشاط كيميائي تحدثه مركبات معقدة يفرزها الجسم".

لكن هل يمكن أن تستيقظ بعد ابتلاعك لقرص ما لتجد نفسك مقبلة على شخص كنت تتحاشاه بالأمس؟ لا أظن. لابد للأقدار أن تتدخل لاقتياد أمثال هذه التفاعلات المعقدة، شديدة الحساسية.

ورغم محاولاتي الدائبة لجعل الأمور أكثر عقلانية، إلا أن الظروف تمشي غصبًا في اتجاه طبيعي عبثي غير مفهوم.

ومهما استطاعت الكيمياء أن تصنع "اللحمة والفتة والجاتوه"، فإنها لن تصنع قط يومًا حبًا.

إن أقراص "الترامادول" و"الترايهكسفنديل"، اختراعات بشرية رائعة بالنسبة لشخص يوشك على الانهيار مثلي. لست أنهار لأني نادم على حب أفلاطوني ضائع. لا، فأنا لم أحبها بعد، ولا أراني فاعل أبدًا.

لكنني منهار لسير الأمور سيراً غريباً، وتعثرها في أوقات مريبة، واتباعها لمنطق مشوش، على طول ما حيي الإنسان. إنني حزين - لا لنفسي- ولكن على تاريخ الإنسانية الذي هو عبارة عن حماقات تسلم حماقات. على هذه الأخطاء التي جعلت التاريخ أقل ودًا وأكثر وحشية. ربما لو تجنب الإنسان هذه الحماقات لصارت الحياة مكانًا أفضل وأكثر تحملًا.

لقطات طويلة مملة من مسلسل التاريخ، ما كان لها أن تتم. لماذا لم يوقف أحد تلك المهازل الكثيرة قبل فوات الأوان؟ عراقيل وفخاخ تتربص بكل صفحة تقرأها في كتاب للتاريخ الإنساني. مُطّ العبث الكائن بيني وبين خطيبتي، لتحصل على موجز تاريخ للزمن.. لتحصل على قصة للحضارة لم يؤلفها (ويل ديورانت)[1].

إلى أين المهرب؟ وأي ملاذ ينقذني من هذا؟ أفي هذا المجال من الصيدلية التي أجلس بها؟ ربما، على هذا الرف في الداخل، المتوار بين المستلزمات؟ لم لا؟ إنه رف مغلق بإحكام، صغير، مكتوب عليه "توكسيك".. أي أنه رف الأدوية الجدول، (المخدرات).

[1] للكاتب الأمريكي (ويل ديورانت) كتاب ضخم في التاريخ اسمه (قصة الحضارة).

لكن لا قلق، فمفتاحه أعرف جيدًا مكانه، حركة بسيطة وينفتح. ثمة أدوية كثيرة بالداخل. فلأتخير منها نوعًا قويًا، ينسيني كل هذا القرف الشخصي، التاريخي.

ترامادول! باركينول! أم مشتقات المورفين؟

لن أخبركم بالنوع الذي استقر عليه رأيي. لا أشجعكم على ذلك. سوف تجدون مشقة في الحصول على هذه الأدوية، أما أنا فيسهل عليّ ذلك.

أنصحكم بالبحث عن طريقة أخرى للتأقلم مع هذا القرف الحياتي. هناك حلول كثيرة، ليس أولها ما جربه (نجيب محفوظ) وأخفق، وحاوله (همنجواي) ونجح[١].

[١]انتحر الأديب الأمريكي (إرنست همنجواي) عام ١٩٦١.

دكتر هاوس[١]

من عادة الإنسان دائمًا النزوع إلى تعقيد الأمور. وعلى طول ما عاش، كان دائمًا كلما وصل لهدف تركه، ليبحث عن واحد أصعب. ووقتما توصل لإجابة، رام للحصول على إجابة أعقد وأشمل.

كان (عليّ) صيدليًا مجتهدًا، أنهى دراسته منذ شهور. إنه الوقت المناسب تمامًا للنزول إلى عالم الصيدليات، والخوص فيه، والاختلاط بمفرداته، خاصة والمعلومات موفورة في الرأس، والنظريات طازجة بضة تكاد تنبض للكشف عن ذاتها.

مع كل دخلة مريض، تتحفز النفس. تُرى هل هي حالة (نكروتيزينج فاشيتس)[٢]؟ أم هو تآكل الأعصاب، المرض الصعب القاسي، نادر الحدوث[٣]؟ هل هذا الشخص المحمول على أكتاف ذويه في حالة إغماء عادية؟ أم تراه مصابًا بداء النوم القاتل الذي تسببه ذبابة التسي تسي؟ أرجو الله أن تكون الحالة الثانية.

[١] شخصية خيالية ابتدعها الكاتب اليهودي (ديفيد شور) ومثلها في حلقات متلفزة - تحت اسم هاوس- الممثل الإنجليزي (هيولوري)، وقد حقق المسلسل نجاحا منقطع النظير. من عادة هاوس حل مشاكله الطبية بطرق لا تتبع بالضرورة المناهج الأكاديمية المتعارف عليها.

[٢] هو مرض خطير تسببه بكتريا نادرة تعرف بـ (آكلة لحوم البشر).

[٣] يحدث هذا المرض بنسبة أقل من ١ كل ١٠٠٠ شخص.

في حياة كل صيدلي لابد أن يمر الواحد بهذه المرحلة التي أسميها: مرحلة دكتر هاوس. حيث يستشعر الواحد منهم داخله حماسًا رهيبًا تجاه كل شيء. فهو يخيل إليه أن أندر الحالات المرضية التي درسها في الكلية سوف تأتي مستسلمة بين يديه. ويرى أن أعقد المسائل الطبية، سوف لن يعدم إيجاد حل مانع لها، تعجز عنه عقول العباقرة.

من ذلك أن الصيدلي (عليّ) هذا، حين ذهب للعمل في صيدلية مجاورة لبيته، ما كانت تدخل عليه امرأة إلا أخبرها بأنها قابلة للإصابة بسرطان الثدي، إن لم تكن قد أصيبت به.

وما يجيئه رجل يتفحصه، ويسأله على الطريقة السقراطية عدة أسئلة، إلا صدمه باحتمالية وقوعه ضحية لمرض السيفلس اللعين، بسبب أنشطته الليلية خارج البيت.

جاءه ذات مرة رجل يرتجف، بل ينتفض، حرارته مرتفعة؛ فتحسس جسده، وجسّ نبضه ليخبره:

ـ شكلها كده ملاريا والله أعلم.. ادع الله ألا تكون ملاريا مخية.

مع أن الرجل عاش طول عمره داخل مصر، وما برحها قط، ومصر ليست مستودعًا لداء الملاريا، واحتمال حدوث حالات فيها ضعيف جدا، بل أمر مستبعد، فما بالك بالمخي منها!

أما عم (إبراهيم) البقال، فزارنا ذات يوم يشتكي من الصداع الشديد والدوار، مع ميل بسيط للتقيؤ. وقتها، بادر (عليّ) قبل أن ينطق الصيدلي المصاحب له ببنت شفة، وكأنه دكتور هاوس، قائلًا:

ـ أنا خايف أوي يكون إلي عندك ده بداية Sever Intra-cerebral hemorrhage.

لم يكد عم (إبراهيم) يسمع هذا المصطلح المفلطح، الذي نطقه الصيدلي كما هو باللغة الإنجليزية، حتى استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ودعا الله أن "يجيب" العواقب سليمة.

ـ يا تري يا دكتور هعيش يعني؟

قالها عم (إبراهيم) باسمًا، فرد عليه (عليّ) في نبرة حادة شديدة جافة:

ـ على حسب.. التوقيت مش في صالحنا خالص. يُفضل نقلك الآن وبسرعة إلى أقرب مستشفى.

لكن عم (إبراهيم) طلب شريط ريفو، وأخذه ثم ذهب عنّا.

ومرت الأيام، شهر، سنة، وهاهو عم (إبراهيم) يجلس في البقالة خاصته، يمسك بالجريدة اليومية التي يشتريها باستمرار يقرأها بينما يسحب أنفاسًا متتاليات من مبسم نرجيلة قديمة مستخدمًا أردأ أنواع "المعسّل".

كل هذا كوم وموقف شريط الحديد كوم آخر.

كان الجو ملبدًا بالغيوم. الهواء يكاد يتجمد، الأنف كهف سري تأتي منه المياه من نبع غامض لا يعرف كنهه أحد. أصابع اليد أطراف زجاجية قابلة للكسر إذا أنت لم تنتبه لها.

دخل الرجل الغريب ليشتري شريط حديد وفوليك أسيد. هما من المكملات الغذائية التي تُستخدم - في الغالب- للنساء اللائي حبلن. ذهب (عليّ) ليحضر مطلب الرجل،ليسأله هذا الأخير:

ـ هو يا دكتور الدوا ده بتاع إيه؟

ـ ألف مبروك.. بتاع الحوامل.. ربنا يتمملك بخير..

فزع الرجل، غام وجهه، وكاد يستشيط غضبًا رغم برودة الجو القاسية، وأردف قائلًا:

ـ متأكد يا دكتور؟

ـ طبعا يا فندم..

قالها في برود تام، أضاف للجو زمهريرًا إضافيًا.

ـ بس دي بنت يا دكتور.. بنت مش متزوجة.

بسرعة، تدخل الصيدلي الملازم ليتدارك الأمر. فأخبر الرجل أنه في أكثر الأحيان يستخدم هذا الدواء في حالات النساء الحبليات، لكن لا مانع على الإطلاق لاستخدامه في حالات الأنيميا العادية التي تصيب البنات المراهقات صغيرات السن.

امتص الرجل غضبه وابتلع غيظه ودفع الحساب ثم غادر سريعًا..

مع الوقت أدرك (عليّ) الواقع. إن الحياة تلوّح لنا بأجزاء صغيرة جدًا من الحقيقة، وتخدعنا حين تهيئ لنا أننا فهمنا واستوعبنا. تقذف لنا كل حين بنظرية، بمعلومة، باكتشاف ما، يظن الإنسان بعد ذلك أنه أوتي مفاتيح الحكمة. لكن ما نعرفه هو صورة ليست طبق الأصل للحقيقة الكامنة.

فلا ينزعج الإنسان حين تميل به بعض الأمور، لتخرجه عن جادة الصواب. للحياة منطقها الخاص، وللواقع حسابات أخرى، غير مجموعة المعادلات والأرقام التي يحتفظ بها الإنسان في كتب العلم الضخمة والموسوعات المختلفة الكبيرة.

هكذا راح (عليّ) - من بعد- يبشر، ويعلم نسخ دكتور هاوس التي تضخها الجامعات كل عام. راح يتكلم وكأنه فيلسوف، مبشر، مصلح..

** ** **

لقــاء

إنه العيد رقم.. ! لا داع لذكر أعداد، فهي أرقام غفيرة وأعياد كثيرة قد مرت. إن التكتلات الاجتماعية لأمر لازم في هذه الأعياد، إنها سنة نبوية واجبة كما يقولون. ونحن- كما يعرف الجميع- ملتزمون بالسنة حرفيًا، وإن كنا نُضيع الفرص على الدوام.

منذ سنين طويلة كنت أحب مثل هذه التجمعات. كنت أتفاعل معها ببراءة وفرحة خالصتين. لم يكن هناك فكر.. الفكر مرهق والإدراك موجع.. والفهم الكثير يولد آلامًا كبيرة.

عندما كنت صغيرًا، لم يكن هناك ماض أنظر إلى الحاضر من خلاله. كانت تجربة عمري كلها آنئذ هي لحظتي الحالية، هي حاضري. كان حاضرًا مميزًا.. حاضر فيه كل شيء جديد.. أول ضحكة عالية، أول نظرة حب صادقة.. أول دمعة حارة تسقط من عيني. لأوائل الأشياء مذاق لذيذ، تشغف النفس به. ربما يكون هذا ما دفع الكاتب (أنيس منصور) لتأليف كتابه الكبير (لأول مرة) مستذكرًا فيه المرات الأول القديمة التي تحدث فيها عن مواضيع معينة لأول مرة، يسرد تجاربه الفريدة التي عاشها لأول مرة، جديدة طازجة.. أول مرة.. البداية.. بداية كل شيء.

أحلى ما في انفعالاتنا الأولى هو أنها تلقائية. هي والسعادة شيء واحد.. فنحن لا نحاول البحث عن السعادة في مواقف معينة، بل تأتي المواقف في انسيابية وبدون قصد ومعها الضحكة والفرحة والسعادة.

الآن نحن نحاول اصطناع الفرحة؛ فتأتي الضحكة باهتة والحبور مشوباً بكثير من الغموض. هناك ماض، وهناك أحلام تكسرت.. مواقف انتهت لا يمكن استرجاعها. إن الماضي سم يأتي على الحاضر ويبتلع المستقبل. لعل هذا سر هؤلاء الذين يودون الهروب من ماضيهم بتمني فقدان الذاكرة أو الدخول في حالات من الانفصام الحاد. محاولات مختلفة للتمرد على الماضي الذي يحكم علينا دومًا بقسوة وبدون رأفة.

ربما يسألني البعض: لماذا تلك النبرة التي تتحدث بها؟.. سأدع لك فرصة للتخمين..

ها؟!..

نعم، هل يُصَدق أني رأيتها؟!

إنها هي بشحمها ولحمها.. بالطبع تخمين صحيح، إنها الحب الأول.. والحب الأخير أيضًا..

وكالعادة طبعًا، لا فرصة لتعويض هذا الحب أبدًا.. فيما مضى كانت هناك عراقيل تمنع، وعقبات.. الآن هناك سدود تحول بين امتداد هذا الحب والتقاء طرفيه.

كان -أيضًا- عيد أضحى منذ سنين طويلة حين كنا أطفالًا.. الخراف تزعق في كل مكان فنهرع على أصواتها- أنا وهي- ممسكة بيدي متشبثة بي.. نجري إلى مصدر الصوت ونقف نشاهد ونلاحظ.. تسألني في شرود:

ـ ترى هل يشعر الخروف بما هو مقبل عليه؟
فأقول في ثقة:

ـ يقولون إن الحيوانات أمم مثلنا لها ما لنا وعليها ما علينا..

فتقول:

ـ مسكين، أليس كذلك؟

ـ نعم، بالطبع مسكين، لكن نحن أكثر منه مسكنة. أقلها هو في لحظة ألمه تنتهي كل همومه وتفنى حياته، أما نحن فالسكين ينحر فينا ليل نهار ونحن صامدون.. أصحاب التنمية البشرية يقولون: "لابد أن تحاول الهروب من السكين. فإن لم تستطع فقِف أمامه في شموخ ولا تأبَ له.. فإن لم تستطع فاعلم أن السكين الذي لا يقتلك يجعلك أقوى.. وهذا أضعف الإيمان".

أما إذا مِت.. امممم.. هنا يتوقف التنموي، وتزوم عيناه في فضاء شاسع لا نهاية له..

نعم كانت تسألني، أو تسائلني، كما فعلت غانية (أبي فراس الحمدانى).. أشعر أن المسائلة تدل على سبق العلم بالشيء موضع السؤال.. على الأقل هناك نية معينة وراء السؤال.. فليس هدفه استفهامي بحت..

كانت تقول:

ـ يؤلمني منظره كثيراَ..

فأقول:

ـ أقلها هو قام بدوره في الحياة.. أكل وشرب ومات.. الدور والباقي علينا نحن.. هو عرف قدرته فرفض الأمانة حين عرضت عليه.. أما نحن فتقبلناها جاهلين.

إن للخروف فلسفة صوفية عميقة.. فهو لا يفكر قط في شيء.. هو يتفاعل مع لحظاته دقيقة بدقيقة.. وطالما وقت النحر لم يأت، فلنأكل ونتلذذ ما طاب لنا التلذذ وسمح لنا الوقت. وحين يُقبل على الموت يظل يمضغ ما في فمه، يتلمظ بقايا الطعام في شقوق أضراسه وكأنه انتوى أخذ حقه من الدنيا بالثانية واللحظة..

إنه خبير علوم تنمية بشرية.. فهو يمثل لنا حقيقة كبيرة فحواها (إن كانت النهاية محددة وليست في أيدينا.. فلنفعل أقصى ما نستطيع ونستغل أكثر ما في أيدينا)..

قلت لها وهى أمامي الآن، بعد أن أصبح ما مضى شبحًا قاتم الملامح:

ـ هل تتذكرين أيام زمان؟

فضحكت وقالت:

ـ وهل تُنسى مثل هذه الأيام؟!.. أتتذكر خروف عم عيد، الذي اقتربنا منه كثيراَ فرفسني في قدمي؟!..

قلت:

ـ نعم، في هذا اليوم ألحت عليك الفلسفة وأردتِ أن تفهمي معنى الموت وماهية الحياة.. وسألتني: ماذا تعنى حلاوة الروح؟.. وأي حلاوة في ميتة كهذه؟!..

فتبسمت وقالت:

ـ لكنك أجبتني إجابة ضَخّمَت في رأسي السؤال إلى حد كبير. أنت لم تُجب قط على سؤال واحد سألته إلا بإجابة هي في حد ذاتها سؤال غامض.. لقد قلت: ربما في فقد الحياة حلاوة تستشعرها الروح.. تعجبت أنا، فكيف تغرم الروح بفقد الحياة؟ وإذا كان طعم الموت حلواً، فلماذا يبكي الأحياء على من يموتون؟

قلت:

ـ وأجبتك: هم في الغالب يبكون على أنفسهم وليس على من يموت..

كانت عيناها سوداء ذات لمعة قديماً.. لكن لمعتها انطفأت، وأحيطت محاجرها بسواد خفيف، ربما هو آثار حزن أو دموع أو أنيميا..

الثلاثة على أي حال مرتبطون بعضهم ببعض..

كان ابنها يقف بيننا طيلة حديثنا هذا.. كنت كلما أردت مداعبته تعثرت فتدنيه مني، في حين ذهب زوجها يستعد لنحر خروف عيدنا.. لا تستعجب فنحن على قرابة تتيح لنا مثل هذا الاجتماع..

ابنها في الثالثة من عمره.. طفل لطيف ألطف ما فيه أنه ليس ابني..

فأنا لا أستحق أبوته على الإطلاق..

أقسى ما فيه أنه كان على صغر سنه وحجمه يقف بيننا كالسد المنيع، مذكرًا إياي أن هذه الضِياع لم تعد ملكي ولا يجوز ولا يمكن أن تكون ذات يوم..

هو لا يعلم شيئاً.. فوقت كان خبراً غائبًا عن الوجود، كان من حقي أن أحلم بكل هذه الضِياع وأطوف فيها وحولها أرتشف من رحيقها أنّى أردت..

تأتي أمها وبنبرة يمكن تفسيرها بشتى المعان والطرق، تسألني:

ـ ألن نفرح بك قريبًا؟..

إذا ما أسأت النية- وحري بمحطم نفسيًا مثلي أن يفعل- فهي تريدني أن أندم وأخبط رأسي في الحائط على تفريطي في ابنتها.. لكني لا أظن ذلك.. كل أم تتمنى من الله أن يُبعد عن بناتها مثل هذه الزيجات العاجزة، حتى لو بدأ الأمر بقصة حب كبيرة كالتي كانت بيني وبين ابنتها..

وإذا ما كنتُ حسن النية، فربما حقًا تشفق عليّ وعلى رؤيتي لابنتها وابن ابنتها.. تريد الاطمئنان على تماسكي وعدم خوار قوتي.. ربما تعتقد أن بزواجي تنتهي هذه الإشكالية القديمة إلى غير رجعة.. زواجي الذي

يبدو أنها دعت الله مراراً بألا يتم -كالمصيبة- مع ابنتها، لكن لا مانع على الإطلاق أن تنزل المصيبة بغيرنا.. سوف ندعو لهم بالصبر والتماسك ونربت على أكتافهم بينما هم يتألمون..

وفي كلتا الحالتين لا أستطيع إجراء جواب..

قد يطالبني أحد بالبوح بالأمر سرًا بيننا.. لكن صدقني، كل ما أستطيع قوله هو أن للأشياء التي نفقدها مذاق خاص وطعم يخلب العقل.. وكلما تعمق الإحساس بالفقد كلما تأكدت تلك اللذة وهذا السحر الخلاب..

ربما لو عادت الأمور مرة أخرى؛ لفضلت الخسارة ثانية على المكسب..

الحب والآلام والرغبة، خليط من المشاعر الإنسانية، لا طعم له ولا رائحة ولا لون. لكنه كله على بعضه شيء مميز يفضل كل الأشياء الأخرى غير المتميزة في واقعنا.. إننا نتباين بالآلام..

أحيانًا، يكون الألم المميز أفضل من الفرح السائح النائح..

لما كبرت هي قليلاً، والتحقت بكلية الآداب قسم فلسفة - وقد كان لي ميل بعض الشيء تجاه هذا الفرع من المعرفة- بدأت علاقتنا تأخذ منحىً غريبًا..

كانت تأخذ كل شيء على محمل الجد.. تحب دومًا أن تفهم وتستقصي..

بدأت الفلسفة من أيام (طاليس) وحتى (برتراند راسل)..

كانت دومًا تحصل على أعلى التقديرات، لأنها كانت تدرس من أجل الحياة.. فليست الدراسة بالنسبة لها معرفة مؤقتة تنتهي بغرضها الضيق في امتحان مدته ساعتين..

ذات يوم جاءت تسألني:

ـ ما الجمال في نظرك؟

سألتها:

ـ تريدين رأيي الخاص؟..

فقالت: نعم.

قلت لها:

ـ الجمال هو أن تكون هناك وحدة تضم أجزاء كثيرة داخل نسيج شعوري واحد، بمعنى أن يكون الجميل والجمال والمتأمل فيهما جزء واحد تحت تأثير إحساس واحد.. إن الجمال هو شيء واحد، ولا يجوز إلا أن يكون شيئًا واحدًا.. واحد فقط.. الجمال هو الوحدة..

حدست برهة في كلامي، ثم قالت:

ـ إنه رأي جديد في فلسفة الجمال..

ـ وأنتِ ما هو الجمال برأيك؟

فكّرت قليلاً كعادتها دومًا.. فهي لا تحب قط التسرع فى إبداء رأيها.. ثم قالت:

- كانوا قديمًا يرون أن الجمال هو أن يؤدى الشيء وظيفته على أكمل وجه.. فحتى سلة المهملات بالنسبة لهم تعتبر جميلة إذا ما حوت القمامة بطريقة صحيحة.. لكنني لا أرى أن أداء الوظيفة وناتجها النفعي هو الجمال.. بل الطريقة التي يؤدي بها الشيء وظيفته.. لو كان الأداء وفق نظام معين منتظم فذاك هو الجمال في رأيي..

جاءت أمي وربتت على كتفي وداعبت الولد الصغير ثم قبلته ورحلت..

سألتني:

- هل لازال (أينشتين) هو مثلك في الحياة؟

فأجبتها:

- يبدو أن المُثل تختلف من فترة إلى أخرى. فجأة وجدت يقيني بأينشتين يهتز، ليحل محله أناس آخرين.. المُثل تذهب وتجئ، لا أدري وفق أي قاعدة.. قديمًا وأنا صغير عندما كان مبدأ القوة هو شاغلي الأكبر، كان "بروس لى" هو مثلي.. وبعد أن تعلمت وعرفت الكثير واستغرقتني الحياة العملية، أصبح أينشتين هو قدوتي.. أما الآن فأنا في حالة مختلفة كل الاختلاف.. وأنتِ.. من أصبح قدوتك في الحياة؟

تقول في هدوء:

ـ على عكس الرجال، نظل نحن النساء منجذبين ناحية قدوة واحدة ومثل أعلى وحيد مهما تبدلت الظروف..

أوجعتني تلك الجملة أيما وجع.. فهي ذات معنى دقيق لا يفهمه إلا أنا وهى..

ذات مرة وهى في عامها الأخير من الدراسة، وجدتها على عكس عادتها في الرويّة والهدوء تقول بحماسة شديدة:

ـ إذا كان لابد لكل إنسان من مثل أعلى فأنت مثلي الأعلى في الحياة..

يومها دمعت عيناي.. وددت لو أن الموت ابتلعني في تلك اللحظة، فليس ثمة شيء أكثر يتمنى الإنسان تحصيله.. أن تقول - هي- هذه الجملة بمثل تلك الطريقة يعنى الكثير بالنسبة لي.. يعنى أن طوفان مشاعرها قد فاض ولم يعد هناك طاقة للتحكم فيه..

يوم مات والدها وكانت شديدة الشغف والتمسك به.. قالت لي:

ـ أتدرى لماذا أنا هكذا صلدة لا أبكي؟

فقلت:

ـ لمَ؟..

قالت:

ـ ألم تقل إن الأحياء إذا ما بكوا الميت فهم يحسدونه حتى في ميتته.. وأنا لا يمكن أن أحسد والدي. بل وأنا أيضًا سعيدة لأني متأكدة أنه سوف يصبح في مكان أفضل، بعيدًا عن مشكلات الحياة وأمراضها التي اتفقت عليه..

سكتُّ.. فهل يصبح يومًا الحب والإيمان بشخص ما يمثل هذا المنهج العملي الذي تجسده؟!. إنها ملازمة للفكر أينما اقتنعت به.. إنها صارمة في تطبيقها لقناعاتها الشخصية..

بعدها قالت لي (وعيناها مغرورقتان بالدموع وبصوت كله أسى):

ـ يبدو أنك سوف تتحمل عبئًا أكثر.. فلن تكون فقط قدوتي، لكنك ستتحمل مسئولية أن تكون والدي أيضًا وأنا ابنتك..

كنت أمشى أنا وهي كثيراً، نفكر ونستنتج سويًا.. ذات مرة، كنا في مصر الجديدة ووجدنا أنفسنا بإزاء بيت قديم عتيق في شارع شفيق غربال المنزل رقم ١٣..

قلت لها:

ـ انظري لهذا البيت، وخمني لمن يكون؟!..

قالت:

ـ أقارب أم مشاهير؟

قلت:

ـ بل مشاهير..

قالت بسرعة:

ـ إذن هو منزل العقاد..

سألتها هل قرأت شيئًا للعقاد.. فأخبرتني أنها قرأت له كتابين: الأول هو (أنا)، والثاني كان كتابا عن "ابن سينا".. فقلت لها إن له كتابًا خاصًا يتحدث فيه عن هذا البيت اسمه (في بيتي).. إن العقاد كان فائر الإحساس، يتعلق بسرعة بكل شيء حوله حتى الجماد.. لكنه كان يتحكم بشكل رهيب في ذلك الإحساس لأنه كان يرى دومًا أنه أعظم من كل شيء..

كانت هذه المناقشات تطول أحيانًا كثيرة.. لكنها دومًا كانت نقاشات وليست مجادلات..

الفرق بالطبع واضح، كانت وهي تحادثني تتمنى في قرارة نفسها أن تكون حجتي هي الأقوى، وكانت تدلي بحججها وبراهينها بشكل مواز تمامًا لحججي وبراهيني. دائمًا تتعمد أن تتأخر عني في هذه النقاشات بمقدار برهان أو حجة حتى تكون لي دومًا اليد العليا..

إحساس غريب كانت تُشعرني به يجعلني فوق كل الناس.. مثبتًا بين الملائكة والبشر..

كانت تقول:

ـ صدقني ما ناقشتك قط إلا وأنا مؤمنة بغلبتك.. لم أرد أبدًا أن أفحمك برأي: أولاً لمعرفتي بقدرتك على الرد والصد وتوليد الحجج والبراهين.. ثانيًا: لم يستقم لي أبدًا شعور غلبتي عليك.. إنه إحساس غير منطقي بالنسبة لي.. إنني أحب الضعف أمامك ولك.. وأحب قلة حيلتي أمام عقلك ورجاحته..

أنا أيضا لم أشعر إطلاقًا بتفوق عليها أو بزهو وغرور بغلبتي.. بل كنت أشعر باطمئنان من وضح شيئًا لنفسه وأبان عن غموض لذاته.. إنها جزء مني. وأن أكشف لها وأخبرها وأعلمها، هذا شيء يصب مني ولها وبها وإليّ.. إنني وهي كالبحر والنهر، لنا طبائع متقاربة كثيرا ومختلفة في بعض الأحيان لكننا دوما نصب خيرات بعضنا في بعض..

يوم غلبتني بالحجة وأفحمتني بالرد، باتت طيلة ليلها تعتذر وتؤكد لي أنها لم تكن تقصد.. وبقيت طيلة الليل أعتذر أننى حاولت إقناعها بشيء ليس صوابًا كل الصواب..

أعلم أن العقول بدأت تستنكر فراقنا الذي تم..

فكيف لهذين القلبين أن يسمحا لأي قوة كانت، أن تلقي بينهما الشُقة والبين..

إنهما متوحدان بالطبيعة والخلق والعقل. لا يمكن أن يكونا قد استسلما تحت ضغط أب طامع أو أم جشعة أو ظروف مادية مؤقتة أو أي شيء من هذه الأمور التي تقطع أواصر كثيرة..

كان اليوم الذي تغير فيه مصيرنا تغيراً حتميًا لا رجعة فيه هو أحد أيام شهر فبراير عام ٢٠٠٥.. حين انتُدبنا كفريق طبي -أنا وثلاثة أصدقاء، وكنا صيادلة- لمساعدة قرى الصعيد التي يحيا أهلها حياة غير آدمية، فتتفشى فيهم الأوبئة والأمراض كما تتفشى بين قطيع من الدواب.. اتجهنا في ذلك اليوم إلى قرى الصعيد. حينها وقعت كارثة قطار المنيا الذي راح ضحيته ما يقرب من أربعين شخصاً.. توفي أحد أصدقائي وجُرح أخر جراحًا خطيرة تعافى منها، في حين أصبت أنا بكسر عميق فى ساقي اليسرى أدى إلى إحداث قطع في العصب الخاص بحركة تلك القدم.. حاول فريق أطباء مستشفى المنيا الجامعي عمل اللازم غير أن النتيجة كانت شللاً دائماً في تلك الساق، الأمر الذي أرداني شخصًا معاقًا قعيداً..

لم تكد هي تسمع بالخبر حتى طار عقلها.. وحين وصلتها الأخبار سقطت منهارة، غير أن بقائي حيًا على قيد الحياة خفف عنها كثيراً.. كان يكفيها ولو إصبع صغير مني، تعيش معه وبه..

لم يكن أمامي بُد من التنصل والهروب من ذاك الأمر الذي كان على وشك الحدوث.. جاءتني بعدما استقر الحال وهدأت النفوس تريد أن تجدد، أو قل تستأنف، علاقتنا. فبالنسبة لها أرادت أن تُشعرني بأن شيئًا لم يحدث، وليس علينا سوى استكمال ما قبل الواقعة..

تصديت لطلبها أكثر من مرة، وأغلظت لها في القول تارة وبالمجافاة أخرى.. غير أنها استمرت في محاولتها بعزم ثابت وإرادة قوية..

إن سحابات السعادة التي كنت أنوي أن نبلغها سويًا لا يمكن الوصول إليها بعضو ضائع.. الحيوية والنشاط والأحلام والطموح، تلك الأمور التي رسمناها معاً، لا يمكن ملاحقتها بقدم مفقود غائب.. لا يمكنني جعل ذلك الكمال المقترن بها مشوباً بذلك النقص الذي يعتريني.

أقصى سعادة يمكن أن تصل هي إليها هي سعادة رضاها بما طرأ عليّ من سوء.. وغاية فرحتها أن تقتنع بقدرتها الشخصية على تحمل شخص قعيد.. إنها سعادة على كل حال ناقصة مبتورة مشلولة كما القدم التي ضاعت..

كان لابد من الفراق، ليس كتضحية مني، ولكن كواجب ومسؤولية أكيدة لازمة..

كان عليّ أن أعمق الإحساس بالبعد.. وأغذي جذور البين والرحيل..

ربما لن تكون سعيدة.. لكن الأيام تداوي أي جرح مهما كان، إذا استثنينا جرح قدمي العاجز.

** ** **

□

موت وحياة

لم يكن قد مرّ على رمضان غير أيام قلائل حين بعث أحدهم إليه نداءَ عاجلًا بالقدوم كي يبت في أمر موت تلك المرأة العجوز، أو إن كان ثمة ما يمكن تقديمه لها من إسعافات أولية ربما تكون ذات جدوى في مثل هذا المقام.. وصل الرسول إليه وسط غبشة الليل في إحدى الصيدليات التي كان يعمل بها على مقربة من بيته.. في الواقع لقد تردد هذا الصيدلي الشاب ذو السمعة الحسنة ما بين الذهاب أو القعود.. وحين استشعر الرسول تردده- وقد كان أحد المعارف- استحثه في نبرة رجاء أن يأتي ليريح قلوبًا معلقة إما بالحزن الخالص أو الأمل القح.. حمل بعض الأدوات التي ربما تساعد في الكشف ثم اختفى مع الرسول..

كان الصمت هو سيد الموقف بمنزل تلك السيدة التي لا ندري أفارقت الحياة، أم لازال هناك بعض الرمق يمكن اللحاق به ..

فى غرفة العجوز، وجد امرأة -يناهز عمرها الخمسين أو أكثر- جالسة. وبمنتهى البرود أخبرته بأن كل شيء قد سُوّي، وتمت مهمة ملك الموت بنجاح.. غير أن آراء هؤلاء لا يمكن الاعتداد بها علميًا، ولا شيء غير الفحص والبحث والتجربة.. نعم قد سبقنا الحدس كثيرًا والعلوم الشعبية في أكثر من موقف وعلى امتداد التاريخ.. لكن على قدر النجاح الذي ناله، كان الفشل الذي لم يخل منه.. لذلك فقد جاء العلم- أو لنقل المنهج العلمي- ليكون كلمة سواء ما بين النجاح والفشل أو الصواب والخطأ..

لم تكد عينا الشاب الصيدلي تقعا على المرأة حتى شعر برهبة يسمونها رهبة الموت.. لا أدرى إذا ما كانت هناك تسمية كذلك أم لا.. لكن لو لم يكن، فها أنا أطرح تسمية لموقف- لا ريب- يستشعره كل إنسان يومًا ما.. في الحقيقة، كانت ملامح وجه المرأة تُدلي ضمنيًا بحرب شرسة دارت ما بين أحد يسحب وآخر يحاول التملص والهروب.. شيء ما خرج، يدل على ذلك نظرة العين الشاخصة وامتداد الفم إلى الخارج بشكل غير طبيعي، وكأنه يحاول شفط شيء للداخل كي يستبقيه. وفوق ذلك كله، الهدوء التام الذي يعقب المعركة..

ألهبته أول لمسة لجسد المرأة لصقيعها لا لسخونتها.. لكنه صقيع تقشعر له الأبدان، فهو أيضًا ما يسمونه صقيع الموت.. هل يمكن أن نفهم من ذلك أن الروح هي تلك الحرارة التي تسكن جسد الإنسان الحي؟.. لكن هي شيء أعمق وأدق، لأن الحرارة ليست أكثر من انعكاس للعمليات الحيوية التي تدور في الجسم تحرق الطاقة لتتحول إلى حرارة.. ولا نستطيع بسهولة القول إن الروح هي العمليات الحيوية، لأن بعض العمليات قد تتعطل في حين تبقى الروح مكانها لا تبارحه..

بدأ في جس نبض المرأة من يديها، ولما لم يحس شيئًا عكف على رقبتها. فالوريد السباتي عنيف جدًا في ردود فعله، ويجعل فحص نبض القلب أسهل. لكن لا نبض على الإطلاق، فالقلب غارق في دياجير من الصمت..

لازالت هناك محاولة أخيرة لابد أن نتأكد بها ومنها، هي فحص العين.. أحضر مصدرًا للضوء وفتح عينيها، قرب الضوء منها وحركه يمينًا ويسارًا لعل العين تنفعل به. تلك علامة فاصلة حقًا لو حدثت.. فربما تنخفض قوة دقات القلب ولا نستشعرها، وليس صقيع الجسد بشيء، ما لم يؤكد بما يليه من فحوص..

بعد كثرة الأماني جاءت الخيبة: لا شيء هنالك يمكن استبقاءه.. لا القلب ينبض ولا العين تتحرك ولا غاية من وجود الصيدلي على الإطلاق.. اللهم إلا تلك الكلمة التي جاء يقولها لتتأكد الظنون: "البقاء لله "..

تلك الكلمة التي لها مفعول السحر. فما أن قالها حتى انفتحت الأفواه والحناجر ما بين بكاء شديد ونعيب و"صويت"، وكأن الأمل الذي كانوا يلتمسونه بقدومه قد خيب ظنهم.. ولم يكد هو يلقى الكلمة حتى فر فرارًا، وهو يشعر وكأنه ملك الموت والمسئول عن تلك المصيبة التي جاءت على رأس هؤلاء الناس في هذه الأيام المفترجة..

انتهى مفعول الموقف بأكمله بالنسبة لأهله. فقد تم تغسيل المرأة والسعي فى إجراءات الدفن وتم دفنها بالفعل.. غير أن انطباع الموقف بكامله لم يغب عن باله لحظة واحدة حتى منتصف الشهر الكريم.. كان يُسائل نفسه دومًا: هل كان يمكن فعل شيء؟.. هل جاء فقط ليفحص تلك الفحوص البسيطة كي يلقى على سمع هؤلاء الناس تلك الكلمة الخاتمة الكبيرة؟.. ماذا لو أن رهبة الموقف بكامله قد أربكت فحصه وكشفه؟.. يُخيل إليه أن العين ربما تحركت قليلًا.. لكن خوفه

الشديد من موقف عاشه لأول مرة في حياته ربما يكون قد أثر على نتيجة التجربة بكاملها.. لقد قرأ كثيراً عن حالات ظن حتى أهل الطب المتخصصين أنها موت لا ريب فيه، لكن كثيرين قاموا ليتحدوا الموت والأطباء.. سمع ذات مرة أن نسبة ضئيلة من البشر تتكشف عليهم كل علامات الموت، ويبقون في غيبوبة طويلة حتى يتم دفنهم. ثم يرتد إليهم الوعي ليجدوا أنفسهم محاطين من كل جانب؛ فيموتون من الجوع والعطش في قبورهم.. نعم لقد وجدوا أكثر من مرة جثثًا في غير مواضعها التي دفنت فيها، وفي أوضاع تمني ورجاء.. ربما كانوا في لحظاتهم الأخيرة يسعون للنجاة أو يطلبون النجدة لكن أحدًا لم يسعفهم .. هل ماتت المرأة العجوز حقًا أم أنه هو من حكم عليها بالموت؟.. لقد أحس نبضة قوية أثناء تحسسه المرأة. فهل جاءت هذه النبضة من قلب المتوفاة أم من قلبه هو الذي جعله الأدرينالين يدق بقوة وشدة بسبب الموقف العصيب الذي وجد نفسه فجأة محاطًا به؟.. في الواقع، لقد جعله الارتباك الشديد يرى ويحس كل شيء ضبابياً.. لقد تخدر إحساسه وتوقفت حواسه عن العمل، ما يدل على أن تجربته وفحصه فاشلين تمامًا في نظر العلم.. لأن أحد بنود التجربة، وهو المشاهدة، لا يمكن اعتباره ها هنا..

على أي حال، أهل المتوفاة هم من يتحملون الوزر. فهو قد اعتذر- بادئ ذي بدء- لكنهم ألحوا عليه وتوسلوا. ولم يُرِد- وهو الخجول- أن يَرُدُّهم خائبين، لذا ذهب معهم بحسن نية متمنياً إفادتهم قدر طاقته..

لكن انتظروا قليلًا.. ألم تخبره المرأة الجاهلة ذات الخمسين عامًا، والتي لا تعتمد في استنتاجاتها على غير الخزعبلات الحدسية، بأن الأمر قد تم؟.. إذن، فالمرأة - حفظها الله - تؤكد رؤيته وهى تساعده على تخطي ذلك الأمر والتوقف عن تأنيب الذات ووخزات الضمير.. إن النسبة التي تحدثت عنها التقارير وتقر بدفن بعض الأحياء نسبة ضئيلة جدًا، ولا يمكن أن تنطبق على حالته. فالله دائمًا ما يقف بجانبنا لأننا لا نبغي سوى الخير.. ثم إن الرسول الذي جاءه أولًا كان يحثه على القدوم بجهد ضعيف لأنه يعلم أن الأمر قد وصل.. وليس رأيه بأكثر من تحصيل حاصل..

إن المرأة ماتت بلا شك..

هل رأى أحدكم تلك العلامات الغريبة التي ارتسمت على وجهها؟!..

لقد ماتت دون أدنى شك عندي في ذلك..

حدس المرأة يقول ذلك..

وجه الرسول يقر بذلك..

إحساسي أنا الأخير يؤكد ويجزم بذلك..

وتلك الفحوص المهترئة التي أجريتها تؤكد ذلك..

إنها ماتت.. ماتت..

لكن حركة العين تلك.. ونبضة القلب هذه.. لمن كانتا؟!..

لي أنا الحي؟.. أم لها هي المتوفاة..

أقصد لها هي الحية، أم لي أنا الميت؟

لمن كانتا؟.. لمن؟

** ** **

أيزو

كان مجرد الدخول من بوابة المستشفى كافياً لجعلي أبتهج، وهذا -بالطبع- ليس مما اعتدناه على الإطلاق. نحن نأتي إليها منذ شهور، ويوميًا نصطدم بتلك الرائحة النفّاذة، المميزة للمستشفيات عمومًا. رائحة هي مزيج من المرض والدواء والجثث المجمدة في انتظار ذويها لتسلمها، بعد معاناة طويلة، أو قصيرة مع الألم والمرض.

أحيانًا تتداخل مع هذه الرائحة، رائحة طعام المستشفى الذي لا تدري على وجه الدقة أهو على وشك أن يؤكل، أم أُكل وانتهى أمره، أم ليس صالحًا للأكل من الأساس؟ ستجد في رائحته خاصية غريبة تحث المعدة على الانغلاق، والمخ على الكف عن طلب الطعام، والأنف على التوقف فورًا عن مهمتها الأثيرة في التقاط الإشارات السارحة في ردهات المستشفى.

لكن ما بال الجو اليوم معبقًا برائحة المنظفات والمطهرات، حاملًا أروما المعطرات؟ حتى رجال الأمن حين لمحتهم على البوابات الخارجية، بدوا لي على درجة كبيرة من النظافة والهندام، متسامين في نظامهم وانضباطهم إلى غاية لم نعتد عليها أبداً.. تثير الشك، أكثر مما تدفع إلى الفرح والابتهاج.

النباتات المزروعة على أطراف الطرق تبدو مبتهجة بضة، مسقية بعناية، وكأن عم مرسي المعني بزراعتها قد بات ليلته يرضعها رضعًا لا يسقيها فحسب، نبتة نبتة. اللون الأخضر يتلألأ ممتزجًا بأشعة

الشمس، محاطًا برذاذ خفيف؛ يرسم لنا ألوانًا من قوس قزح، تظهر وتختفي بسرعة، حسب مكان رصدك لها.

أول أمس، كانت هذه الجنان الصغيرة قفراً، تنمو فيه النباتات معتمدة على ذاتها، بمد جذورها عميقًا للبحث عن مصدر للماء. أما عم مرسي، فكان يكتفي بالجلوس مع العمال - على اختلافهم- يخوض معهم في سير الخلق أجمعين، يلقي عليهم نكتة رقيعة، يأكل بنهم ويتحدث في بلاهة، ويسب النظام الذي لا يكافئه على هذا كله.

لكن دعك من كل هذا، فالأغرب هو عم منصور، ذلك الرجل الذي أقسم - أو هكذا فعل لسان حاله- ألا يهندم من هيئته ولا يحسن منها قط. لحيته شعثاء دومًا، شعره مرتبك في فوضى عارمة لا يلتزم بمسلك معين، وإنما يتشكل كيفما اتفق، أثناء النوم. يخرج من تحت لحافه منتفضًا عن سريره وكأنه خرج لتوه من تحت يد حلاق ماهر، يخشى أن تفسد قصته. أما ملابسه فمتمردة دومًا على المكواة لا تنصاع لها قط.

قد أصدق أن الربيع يأتي فجأة على غير موعد، فتكتسي الأشجار بعدما تعرت، وتنمو النباتات بعدما ذبلت.

أصدق أن النظام الشمسي اختل؛ فأصبح الشتاء ربيعًا والربيع خريفًا. لكن أن يتغير عم منصور، فيتحول "بقدرة قادر" إلى هذا الشخص النظيف اللطيف الصبوح، بملابس نظيفة، وشعر مصفوف، ولحية مهذبة؛ فهذا ليس مما يصدقه عقل، ولا يتحمله نسيج الكون.

ثمة أشياء ألاحظها مما لا نألفه عادةً. القُرح والجراح التي خلفها الزمن على الحوائط، والكدمات والتصدعات في أماكن متفرقة من أرض المستشفى، كل هذا تمت معالجته في غمضة عين.

الأدهى من ذلك الحمامات، دورات المياه. لم أجد يومًا حمامًا في مؤسسة حكومية، مهما كانت، بمثل هذه النظافة. شيء خفي في الحمام يجعلك تتردد لالتقاط صورة "سيلفي" لك وأنت بداخله. وكأن المصريين قرروا فجأة أن يصبحوا شعبًا متحضرًا. أول أمس كدت أصاب بالقيء عندما استثارني منظر الحمام، بقرفه وعفانته. اليوم تستطيع أن تأخذ معك ورقًا وقلمًا لتؤلف كتابًا بداخله عن فلسفة الجمال. تذكرت كلمة لأحد معارفي كان يقولها دوماً، فحواها: إذا أردت أن تعرف درجة تحضُر شعب من الشعوب، انظر إلى حماماته العامة.. أخيرًا نحن شعب متحضر.

حتى الصيدليات، المكان الذي نعمل به، امتلئت بالأدوية ووجدنا أنفسنا في بحبوحة من أمرنا بعدما كادت الصيدلية تفرغ تماماً. هاهي الأدوية تأتي تباعًا، والأوامر تتبعها برصها وتنظيمها حسب حروفها الأبجدية، ووضع ملصقات تُظهر هذا الترتيب، وتُجلي هذا النظام العبقري. ولا ينس أحد أن يتخلص من الأكواب، ويضبط درجة حرارة الثلاجة، ويتأكد من عدم وضع أي مأكولات أو مشروبات بها، مما لا تسمح به القوانين واللوائح. وحذار أن يتجاهل أحد الكارنيه المعلق على صدره حاملًا اسمه وجهة عمله داخل المستشفى. كل شيء يعمل بدقة متناهية، وفي تناغم مطلق.

تعجبت من كل هذا، فها هم المصريون يعرفون كيف يعملون بجد. فلماذا لا يلتزمون ويستمرون؟

هاهم المديرون والمشرفون تركوا مكاتبهم وعرفوا طرق المستشفى التي كادوا ينسونها. هاهم يلتحمون بالموظفين والعاملين، لتتضح لهم أمور كانت غائبة عنهم لفترة طويلة.

الممرضات والممرضون يبدون لأول مرة وكأنهم بحق ملائكة الرحمة.. بعدما كادوا أن يصبحوا شياطين العالم السفلي. الأطباء يكدون لتتمثل فيهم أشرف مهن الإنسانية منذ قديم الأزل، بعد أن حولوها لأحقر المهن قاطبة. أما الصيادلة فلا يكلون عن إسداء النصائح من أجل خدمة المريض على أكمل وجه ممكن.

ـ لماذا لم نر ذلك إلا اليوم يا عم حسن؟!

ـ عشان الأيزو..

ـ إيه الأيزو ده؟

ـ شهادة جودة، بتيجي لجنة متخصصة عشان تعاين الأمور ماشية إزاي، حسب القواعد ولا لأ.. لو لقت الدنيا متظبطة بيدوا المكان شهادة بكده.

ـ كل ده بس عشان كده؟ عشان شهادة؟

ـ طبعاً..

ـ وليه عمرنا ما حسينا إننا محتاجين شهادة تانية؟ شهادة فيها دعوة مريض قدرنا نخفف عنه الألم ودعوة أم قدرنا ننقذ حياة ابنها، وشكر ست لحقنا جوزها؟

ـ عشان الشهادات دي مش بتعمل مصالح، مبتصنعش بيزنس..

وبقيت كلمات عم حسن تطن في أذني.. بيزنس مرة أخرى، ومصالح للمرة الألف..

وتوالت الأيام وأنهى الأيزو عمله، وحصلت المستشفى- عن جدارة- على الشهادة إياها. وكما يتدهور كل شيء بسرعة وبقوة وبشدة، تدهورت المستشفى مرة أخرى، ورجع كل شيء إلى سيرته الأولى.

وانتهى مفعول كلمة "أيزو".. تلك الكلمة التي حسبتها طلسمًا سحريًا من طلاسم الغنوصية[١] يحيل الأشياء في غمضة عين.

لكن من طبيعة الأشياء أنها حين تتدهور بعد تطور، فإنها تتدهور بشكل أعمق، وتصل حدودًا من العبث والتشوش لم تصلها قط.. وكذا كانت مستشفانا.

[١]الغنوصية: و تعني العرفانية، مذهب فلسفي باطني معقد له آراء غريبة و طقوس أغرب، تختلط فيها الأساطير بالأعمال السحرية.



عبث

نعم، حاول الجميع معي كي أنتبه بعض الشيء إلى دروسي وإهمال أو حتى إرجاء أشغالي الصبيانية التي أفتخر بالانهماك فيها حتى أخمص قدمي.. ولما لا وقد أصبح العبث هو الأمر الوحيد الباقي المعقول في عالم اليوم المرتبك المتوتر ما بين شد وجذب قطبين يتربع على عرشيهما مجموعة مجاذيب مغفلين يتحكمون، لا فقط في طريقة عيشنا وتفكيرنا واتجاهاتنا في الحياة، لكن وحتى في طعامنا وشرابنا ونوعية الملابس الداخلية التي تستر عوراتنا[1].. إنهم يقودوننا كالأنعام - بل نحن في نظرهم أضل- إلى غايات محددة. ويجعلوننا جنودًا في معارك مقصودة، معروفة النتيجة مؤكدة الخسارة كي يستهلكوا طاقاتنا بالكامل، فلا يبقى لنا بعد فوات الأوان سوى خط واحد مستقيم نلحق فيه ما بقى من عمرنا الضائع، المشرف على الانتهاء. هم طبعًا من حددوا هذا الخط بمنتهى الدقة والعبقرية..

هذا كان مجمل قولي وردي على كل هؤلاء الأقارب والمعارف الذين حاول والداي استخدامهم للتأثير عليّ، لعلي أعود إلى رشدي وأصبح من الأوابين..

[1]راجع فلسفة فيلسوف الطلاب "هربرت ماركيوز" في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد".

أنا لا أفهم مسرحيات "ألفريد جاري" ولا "غليوم أبولليني" ولا أغلب عبث "صمويل بكيت". لكني مع ذلك مقتنع بما وراء أعمالهم الأدبية من محاولات فكرية وفلسفية عميقة لمحاكاة عالمنا المعاصر بأحداثه اللامعقولة، المجنونة، الخزعبلية.. إنني كلما فتحت كتابًا ولم أفهم منه شيئًا اقتنعت تمام الاقتناع أن هذا الكتاب هو- بالضبط - أدق الكتب المعبرة عن حياتي، الشخصية على الأقل..

ولا يحاول أحد منكم إقناعي بأن العبث يعت في حياتي أنا وحدي، وأن هذه مشكلة شخصية أقحمت فيها العالم والبشرية جمعاء.. وأنني بذلك أعمم تجربة فشلي على الناس جميعا دونما داع .

سيحاول القائل بهذه النظرية- نظرية التعميم المتسرع- إقناعي بأن ابن خالتي أحمد شاب مجتهد؛ ذاكر وثابر حتى وصل إلى شهادة الدكتوراة ونالها بجد وكد.. وأن أحد أبناء صديقه الفلاني قد تزوج منذ شهور واستطاع أن يفتح بيتًا ويرزق بطفل جميل.. وسيحاول إيهامي في النهاية بحقيقة أن العبث لا يقرب حيوات هؤلاء الذين استطاعوا أن يحققوا مشيئتهم ويفرضوا أحلامهم على الواقع العبثي، فاستقام لهم..

صدقوني كل ما يقولونه هذا بالنسبة لي عبث مركب.. فأحمد ابن خالتي كانت ميوله النفسية تتجه برمتها منذ نعومة أظافره إلى الاتجاه الأدبي، والذي أجبر على مفارقته بحكم أبدي عندما قرر والداه إدخاله

كلية الطب- فقط لأن هذه الكلية تتفق ورغباتهم وشكلهم الاجتماعي في محافل المال والأعمال..

ولا يفوتني هنا ذاك الفلاني ابن العلاني الذي تزوج فتاة شمطاء لا تتفق ومؤهلاته وفقًا لاختيار أمه ومصالح أبيه.. وهو قبل أيام من ولادة طفله كان على وشك إنهاء زيجته التي عطلته كثيراً عن عمله وحطمت أعصابه بغبن زوجته الذي يغوص فيه يومًا بعد يوم أكثر فأكثر..

حتى ذلك الذي يحدثني ناصحًا، لمن لا يعرف تاريخ حياته يظن في كلامه صِدق مشاعره حين يقوله، وهو من تزوج وطلق مرتين، أنجب من كلتيهما طفلين لكل زيجة فاشلة. لكنني وقد خبرت ووضعت يدي على كل كبيرة وصغيرة أنى لهم أن يخدعوني..

عندما فشلت في تحقيق مراد أبي وأمي والتحقت بكلية الآداب - في حين أرادوني مهندسًا- كنت أحاول أن أجد فيما أدرس حقيقة تكشف لي لُب ما أحياه. لكني على شاكلة ما ألقاه من عبث سرمدي، اكتشفت أن دراستي وموادي الدراسية- بل وحتى أساتذتي في الكلية- هو جب عميق من العبث يُنتج لنا موادنا الدراسية التي نُجبر على استذكارها والامتحان فيها آخر العام..

وحين وجدت شوقًا بداخلي لسد جانب أخلاقي في نفسي، ألفيتهم يتكلمون عن "الأخلاط الأربعة في فكر بن جونسون المسرحي".. في

الواقع، كان ثمة نوع من تلك الأخلاط الأربعة أود لو أني بصقته في وجه أحدهم[1]..

وحينما كانت الأزمة الاقتصادية طاحنة، لم نعدم من يكلمنا عن الأسباب التى أدت إلى هبوط المارك الألماني بُعيد الحرب العالمية الأولى. أما الآخرين فلا يكفون عن ترديد الجمل الجاهزة عن النظام المالي الإسلامي الذي تتطلع إليه كل الدول الأوروبية حاليًا. وفوق كل ذلك حرب طاحنة بين الشيوعيين والرأسماليين لإثبات أيهما أقدر على دفع عجلة الاقتصاد.. فلا نحن استفدنا من هبوط المارك شيئًا ولا لمحنا من النظام المالي المزعوم أمرًا.. ولا حتى ابتدعت الحكومة طرقًا ووسائل مبتكرة تأخذنا بعيدًا عن سقوط المارك ودعاوى الإسلاميين المجمدة، ولا استقرت الحرب الطاحنة بين الشيوعيين والرأسماليين على رأى.. والكل في حندس عظيم، على رأي القائل.

أتذكر جليًا محاولاتي العبثية قديمًا عندما كنت أستفهم عن إمكانية الاستفادة من درس "النهايات" في مادة التفاضل.. أو أهمية رسم المساقط الرأسية والطولية لنباتات العائلة الزنبقية والباذنجانية، وماذا كان يعنيني عندما أخبروني أن النباتات تنقسم إلى ذوات الفلقة والفلقتين؟!

[1] من الأخلاط الأربعة التي كان يظن العلماء قديمًا أنهم يؤثرون في أمزجة الأدباء "البلغم" الذي يريد أن يبصقه في وجه منظومة التدريس.

هناك فلقتان فقط هما من يشغلا بال الشباب المهتاج في الشوارع، ويجد في الوصول إلى إحداهما أو كليهما – حسب الظروف- كل المعاني الكامنة والظاهرة. .

لم يكن تحصيلي خلال سنوات حياتي الدراسية جيدًا على الإطلاق، ولا مُرضيًا لأهلي، بل محبطًا بكل الطرق والتصورات.. لم تكن الغاية واضحة بالنسبة لي، لذلك كان تقصيري في المذاكرة دائمًا يتناسب بإطراد مع بُعد أو عدم وضوح الغاية.. كلما بعُدت الغاية وأمست أكثر تشوشًا كلما أمعنت في إهمال المذاكرة.. ولم يكن امتحان آخر العام بالهدف المغري بالنسبة لي.. أحمد صديقي كان يذاكر بجد ويتفوق في كل المراحل المختلفة. محسن كان كسولًا يكتفي نهاية العام بورقة أحمد التي تنقله مستريحًا إلى المرحلة التالية.. هذا الديالكتيك العجيب بين أحمد ومحسن لم يغب قط طوال سنين عمري في الدراسة، منذ المرحلة الابتدائية وحتى الكلية.. فإذا تم امتحان آخر العام على هذه الشاكلة، فهو إذن ليس بدافع قوي ولا غاية مبررة..

أحيانًا كان أمثال محسن صديقي يتفوقون حتى على من يغشون منهم.. مدحت كان الأول على فصله بدون منازع. علي تفوق عليه، حيث كان ينوّع في الأوراق التي ينتقي منها الإجابات.. وحيث أنه كالنحلة يمتص تعب هذا ويسرق جهد ذاك؛ فقد تفوق عليهم جميعًا.. لعلي ذائقة ممتازة في الغش. فهو لا ينقل الإجابات وكفى، لكنه ينتقي أحسنها جميعًا..

نفس الحيلة تنفع حتى آخر امتحان دراسي يخوضه الإنسان.. ولا أحد يكتشف هؤلاء قط، حتى حينما يتجسد هذا الغش في شكل حادثة قطار، أو سقوط طائرة أو غرق باخرة.. وقتها يكتفي المجتمع بإدانة العامل البسيط الذي نسي المزلقان مفتوحًا، أو لم يربط المسامير بشكل جيد أو لم يراجع تيل الفرامل المتآكل..

أنا لا أحب المذاكرة، لكنني أحب القراءة والإطلاع عمومًا.. أمقت كل صور الإلزام.. حتى المسئوليات أراجعها دومًا كي أفهمها جيدًا.. لا يمكن تأنيبي على عدم إتقاني لشيء لم أفهمه بصورة تامة.. لا أحب شخصية "جميلة" في رواية "الباب المفتوح"، في الواقع لابد للباب دوما أن يبقى مفتوحًا، لكي يجدد الهواء وكذلك العادات والتقاليد وما يسمونه ب "المتعارف عليه".. لا شيء لازم، ولا شيء يأتي بالإكراه.. في "النبطي" يقول "يوسف زيدان" في حكاية على لسان "مارية": إذا اشتهيتِ مأكولًا أو مشروبًا غير صيامي، فكلي واشربي، لأن صومك قد فسد ولم يعد له داع، فالصوم يكون عن الاشتهاء، لا عن الأكل والشرب..

وأنا لا أكره الواجب.. لكني أكره أن أكون مجبرًا عليه ملزمًا به دون أن أفهمه وأستوعبه.. و"جميلة" لم تدع لنفسها الفرصة كي تفهم.. هي تركت نفسها لواجب لا تعيه.. وحينما بدأت تفهم كان الوقت قد فات ووقتي أنا كذلك..

لما أحببت ذات يوم بصدق وإخلاص كنت كلعبة في يد إحداهن.. استجابت لمداعباتي الغرامية وألمحت لي أنها تجد في نفسها شيئًا لا تستطيع إنكاره أو تجاهله.. كان هذا الهاجس من القوة بحيث أنها

ترجمته فورًا وبلا كثير تردد على أنه الحب يطرق باب قلبها، فسمحت له بالدخول. بعد فترة اكتشفت أنها أساءت الفهم أو الترجمة، أو أي شيء آخر. رأت أن ما كان ووقع ما وجب أن يكون أصلًا، وأننا وعلى وجه السرعة لابد لنا من تصحيح المسار الذي قطعنا فيه شوطًا كاد ينتهي بمقابلة والدها..

تقول إنها اختلط عليها صاحب الهاجس، لكنها يقينًا كانت تشعر به.. كل ما هنالك أن الأمر التبس عليها بيني وبين آخر تصادف أن تقدم وقت مبادرتي.. ومن المسلم به أن الفتاة إذا تكاثر عليها الطلاب، فإنها تلجأ إلى تقييم المبادئ والقيم والعلاقات بشكل مادي، كما حاول دومًا "جيرمي بنتام" أن يفعل..

بعدها بشهرين وجدت أخرى تحاول جاهدة صادقة- ويظهر أنها مخلصة أيضًا- لفت نظري بشتى الطرق.. حادثتها يومًا بشكل مفاجئ وجريء، بل وحتى وقح، كي تُظهر مكنونها.. وعندما أخبرتني عن سرها وجدتني غير مستعد وغير جاهز على الإطلاق.. وقتها سألتني: وما السبب؟.. هذا السؤال السخيف الذي قارب أن يكون حقًا مُسلمًا به لمن يرد أو يصد في محاولات الغرام..فقلت لها:

ـ انكسار.. أتدرين ما الانكسار؟!.. أن تتأملي صفو الحياة فلا تجدين إلا الكدر.. أن تتحملي الآلام في سبيل الراحة فلا تدركين غير امتداد الألم. أن تضحي ثم تضحي فلا تجنين غير خيبة في إحباط في يأس.. غيرك والمجتمع وأنت وأهلي والناس والدين والفلسفة أحلتموني

شخصًا لا أعرفه.. إلى أي حب تتطلعين وسط كل هذا الجو الملبد بالغيوم؟ الحب لا ينمو إلا وسط الصفاء.. ولا يتغذى على غير النقاء.. وأنا تلوثت وتسممت واستحلت بيئة لا تصلح لغير بذور الشر..

وهكذا وجدت أن للأشياء منطق معوج في إقبالها وإدبارها.. وتفاجئت حين وجدتني قد أصبحت حلقة محكمة في سلسلة العبث اللانهائية التي نعرقل بها جميعًا بعضنا بعضًا.. لاحظت أننا بدون ذنب منا نسقط. فإذا ما سقطنا أصبحنا جميعًا مدانين غارقين في الإثم، فنجذب معنا غيرنا.. أحببت الأولى، فآلمتني. أحبتني الثانية، فآلمتها. يالها من حلقة مفرغة، وربما كان حب الثانية لي ظلم وألم لشخص آخر لا أعرفه.

في ظل هذا القرف الذي تسلل إلى أخلاقي ومبادئي، أمسيت غير قادر على فهم البلاهة التي كنت أتعامل بها مع الناس وكانوا يكبرونني عليها.. كيف كنت أحبهم، أحترمهم، أراعيهم؟!

هم الآن أكثر إكبارًا لي من قبل، واحترامًا وتبجيلًا. أنت محترم مع كل الناس، سيحترمك البعض. أنت وقح مع الجميع، سيحترمك الجميع..

إن للاحترام حدوده على كل حال..
الشر يفتح لك كل الطرق مهما بدت مغلقة.
لكن لابد أن تكون على قدر المسئولية التي يوكلك بها..
العبادة مثلًا..

لم نسمع يومًا أن قومًا عبدوا فلانًا لأنه كان ذا خُلُق في حياته.. لكنهم عبدوا "فرعون" لأنه كان ذا بطش وجبروت.. ومن نفس المنطلق توجوا "الإسكندر" إلهًا.. ولازالوا على أتم الاستعداد لتقديم القرابين لكل من يرفع عصا أو كرباجًا..

"ولا تنتظر من شاب مثلي أن يكون قديسًا أو معلمًا أو حكيمًا في ظل مجتمع كل ما يقدمه من أخلاقيات ومبادئ وقيم غارق في المغالطات.. لا تقلبوا حياتنا في انتظار أن نعدلها.. ولا تنتظروا بطلًا يأتي ليقود العالم إلى حيث غاية معينة..
الأبطال مقادين دومًا إلى السجون، والناس في الشوارع تهتف بعبقرية وحكمة الحاكم والقاضي والسجان .."
هكذا أخبرت والدي وأمي وخطيب الجامع ومعلمي وأستاذي، وأصحاب اليمين وأصحاب اليسار ومؤيدي هذا السياسي ومعارضيه.. لم أعد في حاجة لأي منهم، سأفرض فلسفتي وديني على الجميع.. لست مطالبًا بتبرير أفعالي. هم سيبررونها ويجدون ألف سبب حتمي لها عندما أكون قويًا قادرًا..

هذه الفلسفة الجديدة التي اعتنقتها جعلتني كلما سألني أحد: كيف ولماذا ومتى أصبحت على ما أنت عليه؟.. أجيب:

ـ في البداية كان جرمهم هم.. كنت أتعجب، أستغرب، أستنكر.. بعد قليل تملكت الجرم، أصبحت قادراً عليه محيطا به..

أصبحت معتزًا جدًا بجرمي مفتخرًا بأنني صاحب عبقرية شريرة فذة..

تماديت فوجدت الطرق تتفتح لي..

ولم يكن هناك وقت للندم أو البكاء على طهارتي ونقائي المفقودين..

** ** **

بيسة

إن صعود الدور الخامس بعد رحلة مشي استمرت طيلة ساعة كاملة لأمر شاق حقًا، خاصةً إذا كان ذلك نهار يوم قائظ من أيام يوليو، لمقابلة قريب مريض عصبي المزاج كثير الصياح قليل المزاح، ضَيِّق الطبعُ من خلقه وصبره ثم جاء المرض ليزيده ضيقًا واختناقًا. ثم إنك لست زائرًا عاديًا ممن يؤدون الواجب فيذهبون وقد استراحوا ونامت ضمائرهم، بل أنت طبيب بشري لا يفتأ المعافون يرونك حتى يمطرونك بوابل من الأسئلة المناسبة وغير المناسبة. فما بالك بشخص هو قريب مريض عصبي المزاج كما سبق وبيّنا... بالطبع ماذا تتوقع غير شكاوى ودواء وقياسات للضغط والسكر وجرعات من الأنسولين والميتفورمين.. ثم أعراض جانبية من جراء تناول عقار "الإينالابريل" الذي يسبب شهقة وكحة ناشفة تكاد تفلق الحنجرة نصفين.. ثم بعد كل هذا ندم على صحة لم تُصن وشباب قد أفل وأيام خير عز وجودها فى زماننا المنساب دون وعي أو إدراك أو سيطرة منا على مجرياته. إن كل هذا بالتأكيد ليس مما يجعل صدرك منشرحًا وثغرك مبتسمًا على الإطلاق.. وليس مما ترتاح إليه النفس البشرية الوثابة المتطلعة إلى الجمال والتناسق والنظام، لا إلى البلغم والدم والإفرازات..

أظن أن "هيراقليطس" كان يمكنه - في وصفته التي تُرجع الموتى أحياء- الاكتفاء بطلب ثلاثة أشخاص ممن لم يجدوا في محيط علاقاتهم قريبًا معلولًا أو أخًا مكروبًا أو جارًا مبتلى..كان يمكنه التعويل على هذا الشرط الذي يبدو بسيطًا في ظاهره لكنه مستحيل كواقع مُعاش بين

الناس.. وكنت وقتها أضمن له نسبة نجاح واطمئنان إلى عدم إحراجه مائة بالمائة، بصفتي طبيب بشري يعمل في مستشفى حكومي مجرد دخوله يبعث على الانقباض والبكاء الذي لم يكن "هيراقليطس" يتوقف عنهما قط[1].. هذا الدخول هو بمثابة شهادة وفاة ضمنية يكتبها الطبيب بأول جهاز رسم قلب يوضع على الصدر أو أول حرف يخطه قلم طبيب عام فى روشتة دواء..

أن تنتهي من جلسات البكاء والشكاء يعني فرصة سانحة ممتازة لتنفس الصعداء، مع دعوة صادقة ورجاء جميل في المولى أن يؤخر كل الشكاوى ويعمي المرضى والأصحاء عنك لحين أخذ قسط من الراحة والتأمل والنوم.. وهكذا نزلت أسعى بين الأزقة والحارات الخاوية إلا من بائع آيس كريم يتيه في الأرض، أو طفل ضال - يقيل أبوه وتطبخ أمه، التي ما صدقت يذهب عنها ولو إلى الجحيم حتى تنتهي من إعداد الطعام لزوجها- أو طفل آخر يحاول تجسيد عوالم طفولته في جو حار لا يبعث على الأحلام ولا الخيال ولا ينفذ منه بغير لطشة شمس محترمة ترغم والداه على الإتيان به لزيارتي في جحيمي الطبي الأزلي..

[1]هيراقليطس هو فيلسوف يوناني قديم، كان يعرف لطول حزنه وبكائه بالفيلسوف الباك.

كانت يد تمتد لبائع الآيس كريم الذي وقف بعربته عجيبة الصنع التى كان المصريون أول من ابتكروها بعيدا عن حمى التكنولوجيا وضوضاء المعدات الضخمة وتعقيداتها.. تلك العربة التي كانت تحمل لنا -نحن الأطفال- كل مقومات السعادة وقت كانت السعادة في الإمكان، مقدوراً عليها.. فهي تحمل بأحشائها سائلاً مجمدًا لذيذًا يروي لهيب شمس الصيف الحارقة، ينعش الأفواه ويدغدغ قنواتنا الهضمية المشتعلة بالداخل، خاصة إذا كان نهارنا لم يخل من عنف اللعب واللهو أو المشاجرات التي لا تنقطع قط مع أولاد الجيران "الرخمين" الذين لا ينفد منهم مكان ولا زمان..

ومما كان يدهشنا ويحببنا ويجذبنا إلى تلك العربة ذلك المذياع المتخفي وراء دهاليز، لا يكاد يظهر منه غير مفاتيح معينة للتحكم في الصوت أو إغلاقه.. أما الشمسية فهي رمز الأمل والطموح إلى يوم قريب، ربما يتجمع فيه شتات العائلة المبعثرة للتوجه وبأقصى سرعة وبأشد حماسة ممكنة إلى شواطئ البحر المتناثرة في بقاع مصر، من الأسكندرية وحتى الغردقة والعريش، حسب ما تجئ به القرعة لهذا العام ويستقر اختيارنا بين عدة احتمالات..

لهذه العربة فوق كل شي كرسي جميل وبدال وفرامل، مما يُشعرك بانتشاء سادية الطفولة الرانية إلى الأكبر والأعقد، حين تجلس عليها لتتخيل أنك ملكت العالم، أو أنك تقود سيارة أحدث موديل يعجز عن شرائها كل الأطفال الصعاليك أصحابك.. ولا يحقق لك هذا الامتياز إلا ملاحظتك الأولى لبائع الآيس كريم وسرعة بديهتك. فما أن تلمحه حتى

تطلق قدماك تاركهما للريح.. وقد كنت دوما، كما هو واضح من توصيفي ودقة وصفي للعربة ولهفتي الظاهرة عليها، آخر اللاحقين بالعربة. فلست أنا الأسرع بديهية ولا فيزيائية على الإطلاق.. وكنت أكتفي برمق الجالس المتوج على قمة العربة يزدهيه الكبر بين الناس لا ينقصه إلا قول: هذي الأنهار تجري من تحتي.. مشيراً إلى سرسوب الماء الجاري أسفل العربة..

ورغم حدة الشمس وقسوتها، إلا أنها تنبثق عن معان رقيقة حانية.. فماذا كان يعني الظل الوارف لو لم تكن أشعة الشمس الحارة سياطًا تلسع الماشين؟!.. وماذا كان يعني كوب الماء البارد الذي يهبط إلى جوفك وكأنه "ظاهرة لازاروسية" تعيدك مرة أخرى إلى الحياة[1] بعدما شارفت على مفارقتها؟!.. وماذا كان يعني رجل الآيس كريم بعربته الملغزة، التي كانت بالنسبة لنا أهم وأفيد من عربات أحمس الحربية؟!

كل ذلك جال بخاطري وأنا أنظر إلى تلك اليد القصيرة الممتدة إلى بائع الآيس كريم متشبثة بقطعتين نقديتين نحاسيتين.. كانت اليد هي الدليل الوحيد على وجود كائن ما وراء العربة محجوب عن ناظري تمامًا، خاصة وأنني كنت على مسافة بعيدة بعض الشيء، لا أتبين منها شيئًا..

[1]هي حالة طبية مشهورة يتم فيها إنعاش القلب والرئة بطريقة تلقائية بعد فشل الإنعاش الصناعي الذي يقوم به الأطباء. أما "لازاروس" فهو"لعازر" الرجل الذي أحياه المسيح عيسى عليه السلام، وإليه تنسب الحالة.

كانت العربة التي ما برحنا نجري عليها ونلعب بها ومع صاحبها قد هلكت. فالكرسي لم يعد موجودًا والفرامل بالتأكيد لا تعمل، والعجلات صدئت والكاوتشات المطاطية أهملت وتميل إلى الأرض في شبه نعاس، بعدما كان الهواء يشدها عفية قوية.. وحتى المذياع تعطل ولم يعد صوت "الطبلاوى" أو "عبد الباسط" يصلنا منه، فضلًا عن أغاني حسن الأسمر السوداوية التي تخبرنا بكل حرارة وفلسفة أن الحياة كتاب، وأنه كتاب أسود لا موضع فيه لفرح، وأن ثمة طبيب داخل هذا الكتاب- يبدو أنه كحالتي- كلما زاره حسن الأسمر أخبره بأن دواءه لم يظهر بعد، وأنه لم يدرس هذا النوع من الجراح والأمراض في الكلية، يا عنيا..

أما صاحب العربة عم محمود- وكل بائعي الآيس كريم اسمهم عم محمود- والذي كان شابًا يومًا ما، فقد هزمه الشيب ولفحته الشمس ولم يعد قادرًا على مناجزة الأطفال كما كان يفعل بنا قديمًا.. الأطفال نفسها لم تعد بنفس اللهفة والشوق إلى عم محمود وعربته ولا إلى "آيس كريمه" الذي لم يعد لذيذًا كما كان. فأكثره مواد حافظة وألوان صناعية، وغاب عنه اللبن الصافي والمانجو الطبيعي الذي كنا نمضغ لحمه أحيانًا وقشره أحايين أخرى.. حتى طبق المكسرات الذي كان يغمس فيه قطعة الجيلاتى غاب بعدما ارتفع ثمن المكسرات لأرقام فلكية..

ورغم أن العربة لم تعد كما كانت، ولا بقي عم محمود على سيرته الأولى، والجيلاتى أصبح مادة كيميائية مصنوعة في معمل يعمل فيه

صديق لي كيميائي.. رغم كل شيء، كانت اليد ممدودة كما هي بقطعها المعدنية وعم محمود يجهز لها طلبها في بطء وتراخ لازمين، يصدران عن طبيعة فسيولوجية متآكلة..

ثم نزلت اليد أخيراً وظهرت صاحبتها.. طفلة كانت، ربما في الخامسة أو السادسة من العمر.. لم تكن حالتها بأفضل من حالة العربة التي بال عليها الزمان وتبرز، بل كانت من القذارة والرثاثة بحيث تُقدر أنها كي تصل لمثل هذه الحالة ربما احتاجت إلى أعمار ضعف عمرها.. فست سنوات من العمر غير كافية لكي يصبح الإنسان العادي بمثل هذه القذارة..

ـ مع السلامة يا عم محمود..

هكذا خرج صوتها الذي كان يعكس صفاء لا يتناسب وشكلها الذي حمل من كل ضروب القذارات صنفًا..

ـ يلا يلعن أبوك..

قالتها لطفل حاول العبث بنصيب أخيها الصغير من الجيلاتى.. في الواقع، كان أخوها موجودًا منذ البداية إلا أنه لكونه أقصر منها وأرفع لم يكن يظهر منه شيء قط، اللهم إلا بعدما خرجا من خلف عربة عم محمود.. وأخوها يشبهها تمامًا لكنه أبلغ في الصغر.. ومما جعله شبيهًا بها أكوام التراب والطين والشحم التي تخفي الملامح العامة، وتُظهر من كليهما رسمًا ضبابيًا يخيل لك منه أنهما توأمان.. وأن الخلية الأولى

التي جاءا منها ليست حيوانًا منويًا، بل خلية بكتيرية اندمجت مع خلية فطر من الفطريات.

رد الطفل الذي حاول العبث بنصيب أخيها عليها الشتيمة مضاعفة.. وكال لها منها فنونًا مختلف مذاقها وإيلامها ..لكنها حين أدركت صلافة هذا الطفل النظيف ابن أحد أهالي الشارع، ازدردت لسانها وسكتت، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه..

في الواقع لم يكن هذا الطفل الأبيض، نظيف الملابس، بحاجة إلى ما في يد أخيها.. لكن أطفال هذا الشارع وما جاوره درجوا جميعًا ضائقين بهذه الطفلة وأخيها متبرمين منهما على الدوام، ممثلين بهما عقد الطفولة النفسية، التي تنحدر من عقد أوديبية وحتى بعض ملامح المازوخية والنرجسية والسادية - شر مثله..

مشت الطفلة تجر أخاها وراءها، حين بدأت طفلتان في نفس عمرها تقريبًا تطلان عليهما من نافذة منزلهما؛ ليضايقاها بالألفاظ الموجعة.. كانتا تبدوان وكأنهما قد ظهرتا حالًا من حمام نظافة بات "يهرى فى جتتهما" حتى خرجتا منيرتين كطبق البنور.. لكنهما رغم كل النظافة كانتا على شيء بسيط جدًا من الجمال، يشوبه شيء ملحوظ من القبح.

ـ يلا يا معفنة يا مأملة.. يالي مامتك وباباكي مبيحموكيش إنت وأخوكي..

وتمر من تحتهما الفتاة، التي سميتها على سبيل التخفيف "بيسة"، وهي ترمقهما بنظرات حادة، لكنها رغم ذلك تحاول أن تكون نظرات

غير مبالية في نفس الوقت.. فهي وإن آلمتها الكلمات فلا شيء أنجع ردًا على هاتين الحمقاوتين إلا اللامبالاة أو البرود لتفسد عليهما لغوهما. .

ـ يا بت يالى هدومك مقطعة وجسمك كله طين وتراب.. يا ام شعر منكوش.. يالى شكلك يقرف الكلب..

وبالطبع لم يكن دور أم هاتين الفتاتين يتعدى كلمة أو اثنتين على شاكلة:

ـ عيب يا بنت إنت وهي. .

ثم سرعان ما تنشغل الأم في أعمال التنظيف أو الغسيل، لتستأنف فتياتها مزاحهما الثقيل قليل الذوق..

لكن "بيسة" كانت تنظر لهما وفي ثبات تخرج لهما لسانها كي تكيدهما، على الأقل هى تحمل جيلاتي وهما لا.. ثم إنها حرة تجول الأرض والشوارع، مسموح لها بكل شيء غير مسموح لهما به.. هما مقيدتان بعراقيل الأسرة والمدرسة، وخروجهما بميعاد وفي حدود.. أما "بيسة" وأخوها فلا قيود أمامهما على الإطلاق.. فلا مدرسة ولا أسرة ولا مواعيد، كل شيء ممكن ومباح.. وليس ثمة ما يمكن خسارته..

ربما كان هذا الفارق بين الفتاتين في شرفتيهما، والفتاة "بيسة" وأخيها في الشارع، هو أكثر ما يحرق تفكير ومشاعر الفتاتين ذوات اللسان السليط.. فكل طفل بداخله ميول كلبية تهوى التحرر والانطلاق وعدم التقيد بأمر مهما كانت أهمية هذا الأمر.. في الحقيقة، كانتا تحقدان على "بيسة"وهى تجول وتصول، تلاطف هذا الكلب، وتلاعب هذه القطة، وتميل أحيانًا على هذا البقال لتبتاع بعض الحلوى منه دون مقابل، في حين يُحظر ذلك عليهما، فلهما أم وأب تأخذان منهما المال

لابتياع الحلوى، لكن بالتأكيد حين تطلبان المال فلن بنتهيا من التحقيق والسؤال عن السبب الذي تريدان من أجله المال.. فإذا ما عرفت الأم أنهما ستشتريان حلوى، أمطرتهما تأنيباً ووعظًا وتحذيراً من مخاطر الحلوى التي تجعل الجسم يميل إلى السمنة وتسوس الأسنان، وإلى كل ذلك مما "بيسة" وأخوها في حل منه،..

شعور واحد فقط كان يؤلم "بيسة" لم تجربه قط، تتوق إليه.. كيف يبدو الشارع من نافذة في الدور الثالث؟ إنها دومًا على الأرض، لم تستشعر قط كيف تكون من فوق والآخرون تحت.. لذلك لم تكن تُلقي بالًا لكلامهما بقدر ما كانت تتخيل من خلال أعينهما كيف يمكن أن تبدو من حالق..

اقتربت "بيسة" مني، وفي عينيها شبه حزن أو ضعف أو خوف من شيء ما.. ربما لازالت تحتفظ ببعض المروءة والإنسانية وجرحتها الكلمات التي تسمعها دومًا دون أن يلتفت إليها أحد قط.. إنها حتى لا تسمع من أبويها كلمات استحسان.. الأب يسب ويضرب، وهذه وظيفته الوحيدة في الحياة، فلا هو يسعى لتوفير مسكن أو ملبس أو مأكل.. والأم تعمل طوال اليوم وترجع خرابتها هلكى لتغذي ثورها مما جمعته.. والذي ما أن يأكل حتى يشرع في دورة السب واللعن والضرب.. وهي وأخوها الضحيتان الوحيدتان اللتان تُظهر الأم من خلالهما حقيقة أنها لازالت قادرة على التحكم والسيطرة.. وكذا نرى الكل يحاول أن يجعل من نفسه إنسانًا بالانتقاص من إنسانية "بيسة" وأخيها.. حتى أقرب الناس إليهما، أمهما و أبيهما.

قلت لها وهي على مقربة:

ـ سيبك منهم دول عبط.. إنت أحلى منهم هما الاتنين..

نظرت لي وقالت:

ـ نعم! إيه؟!

وكأنها تحاول الإصغاء إلي أو حتى تصديق ما سمعته لتوها مني..

ـ بقولك سيبك منهم.. إنتِ أحلى منهم بكتير..

فابتسمت ابتسامة غريبة هي خلاصة كل ما قيل في الابتسام منذ شعراء اليونان وحتى شعراء العرب والجاهلية..

فلو تذكرنا قول أبي فراس:

"تبسم إذ تبسم عن أقاحي.. وأسفر حين أسفر عن صباح"

لما بالغنا، وإن كان لا أقاحي عندها ولا صباح..

أو هي في تركيزها تساوي كل الابتسامات التي أهاجتها هبات النسيم العذبة، حينما تكتنف عشاقاً يجلسون على حافة نهر رقراق، ساعة غروب..

** ** **

البديل

ثمة باب بين الصيدلي والمريض يدخل منه الشيطان دومًا. هو باب البديل. فما يكاد المريض يدخل، يستقر بورقة علاجه بين يدي الصيدلي حتى يخبره في قرف:

ـ بلاش البديل.. لو سمحت.

يبتلع الصيدلي الكلمة دونما تعليق. يحضر الدواء المطلوب، لكن الدواء الثالث غير موجود. هو أصلًا غير متوفر في الأسواق، بديله له نفس التأثير وموجود، لكن هذا يتجاوز حدود اختصاص الصيدلي المصري.

يخبر الصيدلي المريض بالأمر، فيأخذ ورقته ويمشي.. يأبى أن يأخذ البديل، أو يخرج بالعلاج منقوصًا منه. لابد أن يشتري الدواء بالكامل، وإلا "فيفتح الله".

تذكرت فيلم "أنا الدكتور" لفريد شوقي، حين كلمه الصيدلي يخبره بأن دواء معينًا ليس موجودًا، فأخبره التمرجي "فريد شوقي" بكل أريحية:

ـ مفيش بيدازالدين؟..معلش اصرف التاني.. كيورازالدين .. يحل محله، وله نفس المفعول تقريباً..

بالطبع لا يوجد دواء أصلًا اسمه يبدازالدين أو كيورازالدين، لكن يكفينا أن فكرة البديل كانت مقبولة وقتها. ويبدو أن مشكلة البديل مشكلة قديمة منذ عام ١٩٦٨، أو أقدم من ذلك بقليل.

يعز على الصيدلي أنه يستطيع المساعدة أحيانًا كثيرة، في حين يرده المريض خائبًا مهزومًا.

الناس ترتضي اللف والدوران من أجل إيجاد الدواء، على أن تثق برأي الصيدلي وتأخذ منه دواءً بديلًا..

يصعب علينا كثيراً أن نعمل بصيدلية في مدينة نصر ونجد مريضًا يبحث عن دوائه، آتيًا من المرج مثلًا..

ـ في البديل بتاعه..

ـ لا شكرًا.. معلش.

ـ طب كلم الدكتور يقولك على دواء تاني بدل التعب ده..

ـ كلمته وقالي متجيبش له بديل.. هتلف شوية بس لازم هو بالاسم.

لا أدري ماذا يمكنني قوله حين أسمع هذا! هل هي عقدة الإله بشكل مقلوب؟ في علم النفس يعرفون أن الأشخاص الذين ينظرون لأنفسهم نظرة إكبار وتعظيم مصابون بهذه العقدة، غير أننا هنا ننظر لكلام الطبيب هذه النظرة. كلمته مقدسة لا يمكن الطعن فيها أو تعديلها.

أحيانا ولا حتى يستطيع الطبيب ذلك. ليس من حق الآلهة تغيير ما تقول. على الآلهة فقط أن تقول لنا، وعلينا أن نفهم ذلك بطريقتنا. هذا هو المبدأ في ثقافتنا. إننا هنا من نصنع الإله، فلماذا نغضب حين يتجبر علينا؟

في إحدى الصيدليات التي كنت أعمل بها، أتتني زبونة كانت تطلب الدواء مني باسم مادته الفعالة. كنت أستعجب لها، لكن حين أخبرتني أنها تعيش في أمريكا، زال بعض العجب. وعندما حكت لي عن ثقافة المواطن الأمريكي الطبية والصيدلانية، زال العجب كله من ناحيتها، وأصابني عجب جديد ممزوج بخيبة الأمل في ثقافتنا نحن. كانت تشرح لي أمورًا يعجز حتى الكثير من الصيادلة عن فهمها، وكنت بقليل من الجهد أتمكن من إقناعها بوجهة نظري، مهما بدت وجهة نظري تلك متخصصة.

تذكرت في حسرة مساعي لجنة الدواء بالإسم العلمي، التي حاول البعض تفعيل مجهوداتها. لكنها لم تصف أكثر من مجموعة ملصقات تم تعليقها على حوائط بعض الصيدليات، لتثير عجب المرضى، وحقد الأطباء الذين تجبرهم الظروف أحيانا على دخول صيدلية؛ فيجدون منشوراً معلقًا يقول إن: " الصيدلي هو الخبير الأول والوحيد في شئون الدواء".

سألت صديقي في براءة، حيث أنه يعمل ضمن دهاليز نقابة الصيادلة:

ـ لماذا لم نسمع حتى اليوم عن قرارات تنفيذية بشأن كتابة اسم المادة الفعالة، بدلا من الأسماء التجارية المختلفة التي ترهق المرضى أحيانًا في البحث عنها؟

- بيزنس.. الموضوع ميجيش على مزاج الأطباء..

شعرت بغثيان سارتري. أوكلما وجهت وجهي شطر مشكلة من مشاكل الصيدلة وجدت تلك الكلمة اللعينة -"بيزنس"- عائقًا، يحول دون تحقيق المصلحة العامة؟ بل كلما وجهت وجهي ناحية أي مجال، في اتجاه أي فرع من الفروع؛ وجدتها تعربد بآمال الناس وطموحهم وحاجاتهم. لماذا لم يخلق الله ذلك العبقري الذي يستطيع أن يجعل من مصالح الناس "بيزنسه" الخاص، الذي يعيش عليه ويعيش به؟

أرّقتني غصة في حلقي.. تملكني قنوط وحسرة وخيبة رجاء.. تمنيت لو انفردت بنفسي لأغرق مستسلمًا في دموعي.. تعصف بي مشاعري الهوجاء.. تزلزلني صيحات قلبي المرتجف.

لكن الحياة علمتنا أنه في بلاد العالم الثالث لا داع للبكاء على اللبن المسكوب. لازال أمام أهل هذه البلاد فرصة للحسّ هذا اللبن المختلط بقاذورات الأرض.. ذلك أفضل بكثير من الموت جوعًا.. ألا ترى معي ذلك؟..

قلت وقد حاولت الإمساك بزمام أمري، قدر المستطاع:

ـ وإيه البيزنس في كده؟

ـ ساعتها هيكون الصيدلي هو محط اهتمام شركات الأدوية، ومحدش هيهوب ناحية الدكاترة.. وهتضيع عروض وفرص ربحية وهدايا كتيرة عليهم..

بدأ الأمر يتضح لي.. فأردفت قائلا:

ـ أياً ما كان الأمر.. بس ده المكان الطبيعي والمسئولية الحقيقية للصيدلي.. ولازم العلاقة بينه وبين الشركات تبقى قوية.. بغض النظر عن المصالح الشخصية..

لماذا دائما نضع الأمور في غير نصابها.. ولما نختار بدقة الشخص الخطأ للمكان الخطأ، فتصبح أفعالنا أخطاء مركبة؟

عجيب أمر هؤلاء المصريين منذ القدم.. فعندما علموا واستيقنوا من عبقرية "إمحوتب" ورأوا بناءه الهندسي العظيم "هرم زوسر المدرج"، بجّلوه وعظّموه ومن ثم اتخذوه إلهًا للطب !

أضفت موجهًا كلامي لصديقي:

ـ بس في مشكلة تانية حقيقية.. الجامعات بتطلع كل سنة أفواج من الجهلة.. قليل أوي من الصيادلة يقدر يكون قد قرار كتابة الدوا

بالاسم العلمي.. وبرضو هتضيع على ناس كتير المصلحة العامة.. لأن أخطاء أنصاف الصيادلة هتبقى كتيرة..

ورغم أن الصيدلة مجال واحد من مجالات شتى في دولة واحدة.. إلا أنها تعكس بحق كل مثالب وعيوب المجتمع بأسره. فكل خلايا المجتمع متشبعة بذات الوباء، الميكروب، الفساد.

ذات يوم عندما قررت امتلاك صيدلية خاصة، كانت فرحتي لا توصف، فرحة من أنجز هدفاً.. حلماً طالما داعب منامك وصحوك. لكنني كغيري - كثيرين- لم نكن ندرِ شيئًا عن ذلك البركان الخامد الذي يهدد كل من يفتح صيدلية جديدة.

كنت على سجيتي أوفر كل شيء لزوم الاحتراف والتميز. لابد أن يدخل المريض ليجد مطلبه، أيًا ما كان هذا المطلب. نجحت في البداية كما الجميع، لكن مع مرور الوقت تتكشف ملامح انفجار بركاني. فالأدوية كثيرة بالآلاف، والبدائل لا تُعد ولا تُحصى. أكثر هذه البدائل لا يتحرك، لا أحد يُقبل عليه أو يطلبه. والأطباء حين يكتبون بديلًا معيناً، لا يتزحزحون عنه قيد أنملة. بقاء الدواء أو تحركه مرتبط بسعر الشركة المصنعة، وتسويقها له، وبالإغراءات المقدمة للأطباء كي يصفوه لمرضاهم.

لاحظ أن مدى انتشار الدواء لا نذكر فيه قط عاملًا من المفترض أنه هام جداً.. هو مدى احتياج المريض لهذا الدواء أو ذاك من عدمه، أو أفضلية هذا من ذلك.

حين يمر الوقت أسرع وأكثر، نصطدم بكم هائل من الأدوية منتهية الصلاحية. أدوية بعشرات الآلاف، نجدها دون فائدة. هذا يدفع البعض إلى البحث عن حلول غير شرعية لموازنة القوانين الشرعية العقيمة لسوق الدواء، كما أنه يدفع البعض إلى الاستسلام والتوقف حالًا عن المضي قدما في مشروع أصبحت سبل فشله وإخفاقه أقوى وأكثر وأعمق من سبل نجاحه وتقدمه.

التقدم والنجاح – في الغالب- يتطلبان بدائل هي مزيج من الابتزاز والاحتكار والمتاجرة غير القانونية. أو أن تبيع مثلا شوكولاتات، وألعاب أطفال، ومستلزمات تجميل المرأة. يقولون حين تجادلهم: "مكاسب هذا تقلل من خسائر تلك".

ويبقى الصيدلي داخل الصيدلية باحثًا عن هويته عبثًا. هل جاء ليرجح دواء ويفيد الناس بمشورة، أم جاء ليُستشار في لون المانيكير الأفضل على هذه السيدة، ولماذا يعد هذا الليب ستيك أحسن من الأنواع الأخرى المنافسة؟

أحدهم جاء ذات يوم ليسأل الصيدلي عن المادة الفعالة التي تُصنع منها مستلزمات الأطفال التي يستخدمونها لأكله وشربه. الآخر صمم على معرفة المادة الخام التي تُصنع منها حفاضات الأطفال، والاختلافات الجوهرية بين الأنواع الموجودة في السوق. ولازالت النساء والفتيات يصممن على سؤال الصيدلي – ذلك السؤال الأبدي- عن

الفروقات الجوهرية بين حفاضات العادة الشهرية، من سميكة وطويلة إلى رفيعة وعريضة.

كثيرون لا يفهمون أن للصيدلي مهام أخرى غير كونه القائم على بيع الترامادول وترجيح نوع من الفياجرا على الأنواع الأخرى. لا يعرفون أن ثمة أمراض أخرى أخطر بكثير من تلك التي تؤرق خيالهم النرجسي العقيم. لا يصدقون أن السنوات الخمس التي قضاها دارسًا في كليته، لم يقابل قط درسًا يستذكره عن المقويات الجنسية المستوردة التي تأتي من الصين. ولم ير في كتاب أبدًا مادة فعالة اسمها" خصية بيسون عملاق" أو "إحليل غزال شارد في غابات الأمازون"[1].

لكنهم يصرون أبدًا أنه الشخص الوحيد الموكل والمسئول عن تلك الأمور فقط.

ـ نعم، اتفضل حضرتك.. إيه؟ حضرتك عايز علبة فياجرا مستوردة؟ اتفضل يا فندم، حاجة تاني أقدر أقدمهالك؟ أتمنى إني أكون قدرت أساعد حضرتك.

[1] بعض الأدوية المستوردة نجد مكتوبًا في موادها الفعالة: خصية غزال بري أو خصية حيوان الكنغر، أو العضو الذكري لحيوان ما من حيوانات الغابة.

** ** **

أقرباذين

كنا خمسة صيادلة نجلس معًا على قهوة الفيشاوي بالحي الشعبي القديم الجميل الحسين. لا وجود للحسين رضي الله عنه هناك، والناس تعلم ذلك. لكن الأساطير الجميلة لا تحتاج إلا لكذبة بديعة لتجد نفسها مندسة بين الحقائق، بل بين اليقين. الحقائق تتبدل باستمرار. نسبية، لكن اليقين هو حقيقة مكتملة لا مرية فيها.

دائمًا كنت أفكر في الفرق بين الأسطورة والزيف. قادني فكري إلى أن كليهما لا يمتلكان سندًا قويًا يدل عليهما، غير أن الأسطورة لازالت تجد من يصدقها ويؤمن بها، بل ويتخذها أساسًا لمنهجه العملي في الحياة.

لا أحب الضوضاء، لكن الشتاء يأتي ليجعل كل الظروف مهيأة تمامًا لتصبح كما أريد. الهدوء الذي لا يقتل، يتخلله صوت قطرات المطر المتساقطة على نوافذ القهوة، حركة بسيطة منتظمة تُجلي لك ديناميكية الوجود، الدائم السيلان. إن الوجود متحرك حتى في ثباته الوهمي الظاهر.

يشتد المطر ويهدأ. تتمثل فيه الحياة حين تمشى متباطئة وحين تجري بجنون إلى نهايتها. بريق حاد سريع خاطف ينير الشوارع الضيقة المتداخلة كمتاهة ليست إغريقية ولكنها مصرية بالكامل. ليست أسطورية وإنما هي واقعية وحقيقية تماما[١].

[١] في الميثولوجيا الإغريقية، ورد أن المهندس (ديدالوس) صنع متاهة -لابرينث- للملك (مينوس) للتخلص من المينوتور.

منذ زمن وأنا أرى أن الشتاء هو الفصل الذي أنتج كل روائع الأدب والفلسفة. لكأن كل كلمة قالها فيلسوف، قالها وهو يتابع زخات المطر المنهمر. إحساس عميق يجعلني أظن أن كل بيت شعر لم يتسع له خيال صاحبه إلا وهو يقف وراء نافذة يتابع سيمفونية الشتاء التي تعزفها الطبيعة أمامه باحتراف. المادة تنكمش في الشتاء ويتمدد فيه الفكر إلى غير حد. الأجساد تتقارب والذرات تتلاحم وتبقى الروح طليقة هائمة. يلح الجنس في الصيف، ويغلب الحب في الشتاء.

كان (ألكسندر بلوك) يراهن على أن الحياة ستنقلب في يوم ما بحيث تصبح معنى خالصاً، تجريداً تاماً، فكراً محضاً. أدلى بذلك لصديقه (مكسيم جوركي) في جلسة شتوية قلقة. أعتقد أنه لو حدث ذلك فسيحدث في يوم من أيام ديسمبر الشتوية[١].

في الليالي القمرية، وبعد أن تتوقف سيول الماء المنهمرة؛ تتجمع جداول الماء في النقر التي تصيب الأسفلت. يتحول الجو المحيط إلى صقيع ساكن، لا هواء لا رياح، ولا حركة. كل شيء تحول إلى لوح ثلج كبير. تستقر برك الماء لتعكس قرص القمر الفضي المتلألئ في السماء. كم من مرة حاول العلماء تقبيح صورة القمر في نفوسنا، لكن جماله ورونقه السرمدي يأبى أن يطبع نفوسنا بغير التعلق به والوله بسطوعه. هو ملك الليل بلا منازع، ونحن... نحن مريدوه.

[١]راجع مذكرات (مكسيم جوركي) أو (المدينة الخاطئة) لـ(سلامة موسى) فقد ترجمها بشكل جيد.

تُذكرني صورة القمر المنعكسة بتراث صيني، حيث حاول الشاعر الصيني الرومانسي القديم (لي باي) - في ليلة سُكْر- أن يمد ذراعيه تجاه صفحات نهر اليانجستي ليحتضن القمر المطبوع عليه؛ فخر صريعًا ميتًا.

في هذه الأجواء وتلك الظروف، اجتمعتُ وأربعة من أصدقائي في هذه الليلة. ذلك لقاء ثابت لا نحيد عنه، التزمنا به منذ أن كنا ندرس في الكلية. يربط جماعتنا هذه أكثر من صفة مشتركة: كلنا نحب القراءة ولنا في عوالم الأدب باع، واستطاع أحدنا بالفعل نشر كتاب له. كان لنا في صالونات الأدب القديمة أسوة حسنة، قهوة متاتيا وريش والمسيري ومقهي إيزافيتش، كنا نتخير كل أسبوع موضوعًا ما لنتناقش فيه.

بدأت الفكرة عندما قرأ أحدنا لبرنارد شو كتابًا يقول فيه - أو كما قال فيه -:

"لو كان معك تفاحة وصديق لك معه تفاحة أخرى، وأعطى أي منكما تفاحته للآخر؛ فسوف يصبح أحدكما مفلسًا في حين يمتلك الآخر تفاحتين.. أما لو كانت معك فكرة وصديقك عنده فكرة وأعطى كل منكما للآخر فكرته؛ فسوف تمتلكان فكرتين كاملتين دون أن ينقص العطاء في هذه الحالة من نصيب الآخر شيئًا".

تتوالد الأفكار فيما بينها، وتلك مزية سحرية لابد أن نستغلها. توقع محصول قراءة خمسة أفراد يتوالد فيما بينهم على الدوام.. سوف يصبح لديهم عالماً كاملاً من الفكر والمعرفة.

في هذا اليوم، انتوى صديقنا الأزهري الوحيد بيننا (ناجح) - أو كما نسميه الشيخ (ناجح) - الحديث عما يعرف بـ "الأقراباذين".. يمتاز (ناجح) عنا بحفظه للقرآن كاملًا، ما جعله ينطق اللغة العربية ويتحدثها بطريقة محببة إلى النفس، مضبوطة المخارج، منقحة لغويًا.

طلب كلٌ منا نرجيلة خاصة بطعم الفاكهة المحببة إليه، وبتنا جميعًا نسحب الأنفاس وراء الأنفاس. رشف كل منا رشفة من مشروبه الخاص الموضوع أمامه بعناية. كان مشروبي السرمدي المفضل هو القهوة، ذلك المشروب السحري الحلال. أدرك جيدًا لماذا كان (بلزاك) مدمنًا لهذا النوع من المنبهات، على وجه الخصوص. لقد مات بسببه على إثر إصابته بذبحة صدرية شديدة. ترى أكان هذا المشروب الداكن القاتم سبب إبداع (بلزاك) لعالم الكوميديا الإنسانية الذي ألفه؟ أيمكن أن يخرج من كوب صغير دقيق كل تلك الحيوات التي بثها (بلزاك) على صفحات رواياته، كاسيًا إياها باللحم، مجريًا في عروقها الدم، مثيرًا النبض في قلوبها التي تضخ حياة تامة؟ لماذا اختار العرافون قعب القهوة بالذات لاستطلاع المستقبل والتنبؤ بالقادم؟ القهوة ليست كأي مشروب آخر؛ إنها تفرض طقوسًا خاصة لصنعها وتجرعها، ثم تختار مدمنيها بعناية فائقة. ليست كل شخصية تصلح لإدمان القهوة، ولا كل مزاج يتماشى مع ما تثيره بداخلك وتفتحه أمامك من آفاق.

قديمًا كان للشاي مثل هذه السطوة حين وضع اليابانيون له إيتيكيت خاص لتناوله. كان الناس يتعلمون قواعد هذا الإتيكيت ويحترفونها، بل ويذهبون إلى مدارس خاصة من أجل ذلك، لو اقتضى الأمر.

تحدث صديقنا الأزهري معلنًا عن بدء الموضوع محل النقاش، في نفس الوقت الذي استشعرت بقدح القهوة وهو يكافح تحت جلدي، ويعربد في شراييني ويخترق متاهات مخي وعقلي بجسارة وقوة.

ـ أقراباذين.. أيدري أحدكم ما الأقراباذين؟

كنت أدرك تمامًا أنه لا فائدة من شيء، ولا حتى الثقافة. أخذتنا الثورة وقت اندلعت، وتفرقنا في ساحة النضال، كل منا يجاهد في الدور الذي حددته له الظروف. لقد قامت الثورة ثم قعدت، ثم قعدنا نحن معها. الله أعلم متى تقوم ثانية، وهل سنكون نحن قادرين على القيام معها؟ أم ستصيبنا الشيخوخة وينتشر فينا البلى؟

ـ أقراباذين كلمة يونانية معربة، تعني دستور الأدوية.. أو كما نسميها الآن (فارماكوبيا).

هكذا تحدث الشيخ (ناجح) بينما كنت أتابعة بأقل القليل من تركيزي، في حين يجنح عقلي لأماكن أخرى بعيدة بمعايير المكان والزمان.

ما أهمية الفارماكوبيا في أيامنا الكوبيا هذه؟ وما نفع دستور الأدوية إن لم يكن لدينا دستور دولة محترم يلزم الكبير قبل الصغير، والباشا ومعه الغفير؟ إن عدم وجود قوانين ولا أسس ولا قواعد نلتزم بها لأمر يثير القلق والخوف. حتى لو وضعنا أقراباذينا خاصًا بنا، ترى أسنثق به؟ لو صنعنا سيارة، أسوف نقبل على شرائها؟ لو ابتدعنا سلاحًا، أستتكالب الدنيا علينا من أجل التزود به؟ لو اخترعنا دواء، أسوف

يبرئ أمراضنا؟ لماذا يا ترى؟ لماذا لا نثق في أي شيء منا، وبنا، ولنا؟ لماذا حين ندعي الإبداع يشيط منا إبداعنا على الفحم المتقد؟

ـ كان العرب أول من صنع الأقراباذينات، حيث وضع (سهل بن الكوسج) برعاية أمير المؤمنين أول أقراباذين معروف لنا. ولـ (ابن التلميذ) و(ابن سينا) و(القلانسي) أقراباذينات أخرى تختلف فيما بينها. فقد كان كل واحد منهم يضيف ويحذف وفق ما يراه من صواباً، وما يستجد من معارف في عصره.

حتى لو صح أي كلام تاريخي ندرسه أو يقال لنا، حتى لو بنينا أفضل حضارة، وصنعنا أعرق تقدم في التاريخ؛ فهذا لا يعنيني في شيء. أين أنا من كل هذا؟ وأين زماني من الأزمنة الغابرة المغبرة؟ يكفيني التخلف الحالي الذي نرزح فيه، والتدهور الذي استوعبنا وكل حياتنا، ليجعل ألف ألف عام من التقدم الذي لم أعشه ولم أشارك فيه صفراً نكرة على يسار رقم صغير. نحن نعرف الآن شيئًا واحدًا نحترفه ونبدع فيه، نعرف كيف نهد ما بنيناه بقوة وإصرار عظيمين، نعرف كيف نجعل المعنى مفرغًا من مضمونه، والحقيقة منفصلة عن تأثيرها وفعلها.

لو أننا فقط قطعنا سبعة آلاف سنة في اتجاه واحد - ولو ببطء شديد- من التقدم! لو أننا فقط ابتعدنا عن العراقيل الكثيرة والتزمنا بطريق مستقيم بدلًا من المتاهات التي نعشق الضياع فيها!

ـ ولم يظهر أول أقراباذين في أوروبا إلا سنة ١٥٤٢ في نورمبرج بألمانيا.

ومما لا يهم قط "متى بدأ الإنسان". المهم أنه بدأ، وأنه التزم بما بدأه، وأنه حافظ على ما بدأه، وحقق فيه نجاحًا، ثم كان على قدر المسئولية التي ألزمه بها هذا النجاح.

ماذا ينفع حضارة السبعة آلاف سنة إذا صارت تشحذ وتقتات على عطايا وهبات الحضارة الجديدة الفتية الناشطة؟ ماذا ينفعها إذا بقت تتسول المعونات من هنا وتتبع أثرها هناك؟

المهم أصلًا هو أن الأقراباذين قد ظهر عندهم وأنهم عكفوا عليه، فطوروه، وأنهم بلغوا شأنًا كبيرًا في ذلك، حتى إننا نحن أصحاب الحضارة العريقة العتيقة، نعالج مرضانا وفق الدستورين الأمريكي والبريطاني.

ولم يعد لأقراباذين "ابن التلميذ" ولا "القلانسي" نفع،

ولا لنا نحن أيضًا.

** ** **

إعدام

في اليوم الذي مر من أمام إطارات سيارتي ذلك الكلب الصغير المهترئ، يعلو فروته الجرب، يعرج على ثلاث، فاقدًا إحدى عينيه؛ حاولت جاهدا أن أتفاداه بانحرافي فجأة عنه. كان ذلك صيف عام ١٩٥٥. لم تكن العواقب سليمة. اصطدمت السيارة برصيف الطريق وكادت تنقلب لولا ستر الله. كان من الحمق بالنسبة للبعض الإقدام على ما فعلت. كيف أحرص على إنقاذ حياة كلب لا قيمة له، و أعرض نفسي لخطر حقيقي و لتكاليف مادية تثقل كاهلي و تؤثر على سير حياتي؟

لقد أصبحت المادة – في هذا الزمان- هي المؤثر الأكثر تفردًا في تأثيره على حيوات الناس و آمالهم و طموحاتهم. من يمتلك ثمن حلمه هو فقط القادر على شرائه و تحقيقه. أما المؤهلات الأخلاقية والعلمية والكفاءات وما إلى ذلك، فليست ذات قيمة أو نفع.

في كلامهم بعض المنطق، منطق عالم عبثي براجماتي نحيا فيه، فيؤثر حتى في بديهياتنا وأعرافنا وتقاليدنا. عندهم أن الرجل الذي دخل الجنة في كلب حسب ما ورد في حديث شريف، لم يخسر شيئاً مقابل تقديمه جرعة ماء لكلب على أبواب الهلاك؛ أما فعل الخير مقابل خسارة، فأمر غير وارد ولا يحث عليه أحد. نسوا جميعاً أن الشيء الصحيح و الفعل الخيّر مطلوبان لذاتهما، مبرران بداهة دون النظر إلى معايير المكسب أو الخسارة في هذا السياق.

كانت عينا الكلب المشدوهتين تحملقان فيّ، غير مستوعبتين ما حدث، ممتن هو لفعلي فيما يبدو، لكنه يستغربني بعض الشيء. فعينه

العوراء وقدمه المكسور وجسده الأجرب، تحمل له ذكريات سيئة عن الجنس البشري. تذكر ذلك الرجل الذي فقأ له عيناً، و تلك الدراجة التي يقودها طفل فكسر بها له رجلاً، وصاحبه الذي ابتاعه ذات يوم ليسرحه بعد أسبوع واحد فقط دون أن يراعي طفولته الساذجة، التي يمكن أن يضيع بها وسط قوانين المدينة العملاقة التي يأكل فيها الكبير الصغير، و القوي الضعيف.

عموماً، رغم كل ما تكبدته من نفقات مالية أو نفسية، شعرت بالسعادة كوني أنقذت روحًا، أيا كانت هذه الروح. و افتخرت كوني بهذا الفعل محموداً في البوذية والمسيحية والزرادشتية والكونفشيوسية والإسلام. فأفعال الخير المجردة لا خلاف عليها في جميع الأديان، السماوي منها و الأرضي.

أقول: في ذلك اليوم بالذات، الذي أنقذت فيه ذلك الكلب، لم يكن يدور أو يقترب أو حتى يمس مخيلتي من بعيد أنني سأقف ذات يوم أمام مشنقة، كي يتم تنفيذ حكم بالإعدام ضدي؛ ذلك أني - كما يرون- قد حرضت و حثثت ومارست القتل بنية مبيتة واعية لقلب نظام حكم. ورغم أن الأديان كلها شهدت لي بالخير إلا أن اختلافي الفكري وقناعاتي- المباينة مع فكر وقناعات هؤلاء- لم يُغتفر لأنه كان اختلافًا سياسياً. و لم يكن مسموحاً بالاختلاف السياسي فترة الستينيات.

لما سألني وكيل النيابة عن ملابسات قتلي لفلان، الذي لم أره من قبل، وعلان الذي لا أعرف عنه شيئًا على الإطلاق، وجدتني أقول له:

ـ سأحكي لك كل شيء بالتفصيل.

ابتسم الرجل و أحس أنه أخيراً قد ظفر باعتراف جاهز دون مشقة أو مناهدة. لكني حين تكلمت حدثته عن قصة الكلب إياه، رغم مرور عقد من الزمان على وقوعها. راح يسمعني بإنصات في انتظار الجزء الأهم من القصة، الجزء الذي يحكي عن كيفية اقتحامي لمكان تواجد الأخوين فلان وعلان ، ومع من كنت، والأسلحة التي استخدمتها والعصابة التي أنتمي إليها. في حين رحت أنا أصف له نظرات الكلب، ومنطق الأصدقاء المشوه الذي لاموني به على إنقاذي لكلب أجرب، لا قيمة له في الحياة.

لم يفهم مما أقول شيئاً. ظن أني أسخر منه أو أقلل من شأنه، أو أتهرب من الأسئلة الموجهة إليّ. لكني في الحقيقة رحت أسرد القصة دون وعي تام، و كأني منوم مغناطيسياً، أو في غيبوبة. كان العرق يسيل مني أنهاراً و شعرت أن الوجود من حولي يتضائل، و أن إدراكي لذاتي يخفت رويداً رويداً.

جُدد أمر حبسي لعدة أيام عانيت فيها كل ما يمكن لأي شاب مثقف أو قاريء عادي قرائته في الكتب عما كان يحدث في السجون فترة ستينيات القرن المنصرم. كانت الكلاب الجائعة تأتينا تنهش من لحمنا ودمنا. وقع هاجس بداخلي عن احتمال أن يكون هذا الكلب المتوحش هو نفس الكلب الذي أنقذته ذات يوم.

أخبرني صديق بجانبي في الزنزانة، حين شرحت له هذا الهاجس ، أن الكلاب لا تنسى المعروف أبداً، و أنها لا تعض يداً قدمت لها مساعدة قط.

كان كلامه صحيحاً، لكنه جعلني أتعجب أكثر وأكثر. لماذا ينسى الإنسان إذن من يقدم له يد العون و قت الشدة؟ ألسنا نحن الشعب الذي وقف بجانب ثورة يوليو ١٩٥٢؟ لماذا تناسى القائمون على سدة الحكم هذا وراحوا يفعلون بنا ما يفعلون؟

ألم يكن الشعب هو عشقهم الأول والأخير ؟

ألم يكن هو مسعاهم منذ البداية وحتى النهاية، كما كانوا يخطبون؟

نحن هذا الشعب لم نتغير. لكن انظر إليهم هم كيف كانوا ، وإلى ماذا صاروا ؟!

** ** **

صيوتوبيا

١

قد يتعجب البعض، وقد يستنكر الكثيرون مما نحن بصدده. الغالبية من العقول سترى أنه من السذاجة أن تتحدث صيدلية، تسرد أدبًا وترطن فلسفة. لكني- أنا- أكثر دهشة، ولا أرى مسوغًا لتعجب البعض الأول. كما أنني أستقبح استنكار الكثيرين، وأشك في عقلانية الحكم بالسذاجة الذي تتهمني به عقول الغالبية. ألم تظهر إلى الوجود قبلي مسرحيات أبطالها الكراسي وخشبة المسرح والستائر المتحركة؟ ألم تتفاصح الحيوانات وتتفيهق في كليلة ودمنة؟ أليست ألف ليلة وليلة منبرًا وبوقًا لكل من يريد القول أو الفعل أو الحركة؟ حتى ولو الجمادات نفسها؟

لذا دعونا من أحكامكم المتسرعة غير المدروسة التي تظهر لكم كثيرًا في ثياب المنطق، وهي ليست أكثر من أغاليط تكسونها بإرادتكم وأهوائكم ثم تبرزونها في شكل مقبول اجتماعيًا، يخدع من لا يعرف، ويشجع من يعرف على تجاهل الأمر واعتباره كأن لم يكن.

فلتستمعوا إذن إلى حديثي، حديثي فقط، ومنه تقررون وتحكمون. أعلم مدى شغفكم بالقرارات العامة والأحكام المطلقة. هوايتكم القديمة الوحيدة التي تمارسونها وتفشلون رغم ذلك فيها. تلك الهواية النرجسية التي يتضح منها ما خلف النفوس المعتمة ويستبين بواسطتها ما خفي ودق.

ثم ماذا أقول لكم أكثر مما قاله عميد أدبكم العربي حين صرح في قصته (ما وراء النهر)، زاعمًا أن قوانين الفن أثبت وأرسخ من قوانين الطبيعة؟! وأن قوانين الطبيعة لا يمكنها البقاء طويلًا لمواجهة قوانين الفن.

أنا صيدلية السعادة، أو صيوتوبيا. أشغل حيزًا من الفراغ، ولا أقول مكاني كذا، فهل يتأتى للمكان أن يقع في مكان؟ في تلك المنطقة الشعبية التي اصطلح الناس على تسميتها "......". أنا صيدلية متفردة بين الصيدليات، ليس بما أدره على صاحبي من ربح ودخل كبير، لكنني متفردة بأخلاقياتي التي رسمها صاحبي واتبعها طاقمي الذي يعمل بي.

ذاكرتي حديد، ذلك لأنني مكان، والمكان لابد له من زمان. بل، لا طاقة للمكان أن يكون دون أن يكون هناك زمان. ألم يقل فيلسوفكم (صمويل ألكسندر): "لولا الزمان لكان المكان كتلة مصمتة؟" ثم إنني كمكان أتلحف دومًا بالزمان، نلتف سويًا حول بعض مكونين ضفيرة من التحامنا تسمونها أنتم (الزمكان).

في الواقع أنا لا أحتاج إلى ذاكرة كما قلت، أنا أحاول فقط تبسيط الأمور لأذهانكم، حتى لا ينقطع الخيط السردي منكم ومني. أما لماذا لا أحتاج لذاكرة، فلأن الزمكان موجود بتمامه، ماضيه، حاضره، ومستقبله. بل دعوني أخبركم بأن الزمكان حاضر بحت، فلا معنى فيه لماض أو مستقبل. ذكرياتكم كائنة ها هنا في أحشائي، أستطيع بحركة واحدة سرد ما تم لكم في داخلي من أحداث وقعت منذ ساعتين، شهرين، أو حتى سنتين.

علماؤكم يقولون إن باستطاعتكم السفر إلى الماضي أو المستقبل أو معاينتهما من خلالي. اسألوا (براين جرين) كيف يمكن ذلك. ثمة فرع من فروع الفيزياء اسمه "الفيزياء النظرية" تستطيعون من خلاله فهم كلامي أكثر، أو ما تحسبونه جنونًا مطبقًا وخيالًا محمومًا مريضًا.

لا أدري لماذا كلما هممت بالحديث إلى أحد منكم أضعت كثيراً من الوقت في هذه المقدمة الطويلة التي لا أظنها لازمة. ربما لأنها تبرر كلامي وحديثي معكم، لكن لا داع لتبرير ذلك. من الآن وصاعدًا يكفي أن أقول، وأن يكون كلامي وحديثي هما الحكم الفصل الوحيد بيني وبينكم، ولتحكموا- بعدئذ- عليه ما لذ لكم الحكم وطاب. فأنا أحسب أنكم ستجدون نفعًا وفائدة حين أصارحكم بما أنتوي إخباركم به.

قلت لكم إن اسمي صيدلية السعادة، أو صيوتوبيا، السؤال المنطقي الأول الذي من المفترض أن يتبادر إلى الذهن هو لماذا؟ لماذا سميت هكذا؟ وما الذي أشاع عني هذا الإسم، وتلك السيرة؟ أيعقل أن تكون هناك سعادة وسط الأدوية وفي جو معبق بالأمراض؟ أي سعادة في صيدلية تعج بأدوية الاكتئاب والفصام والقلق والصرع؟ ما السعادة التي قد تأتي من بين مضادات التجلط ومانعات النزيف ومثبطات المخ والمضادات الحيوية؟

لكن دعوني أؤكد لكم أنني لست من أطلق هذا الاسم على نفسي، ولا فعل صاحبي ولا العاملون معه. فقط أطلق الناس هذا الاسم مع مرور الأيام وتوالي الحالات وتتالي الظروف، هكذا وجدنا الاسم يأتينا دون قصد منا وبلا افتعال من ناحيتنا.

والاسم، لا نحب أن يُنظر إليه على أنه استعارة لغوية ولا كناية بلاغية ولا مجاز مرسل، بل هو جملة خبرية تقريرية تجسد واقعًا حيًا. فلا يجوز في عرفنا أن يدخل مريض أو سليم دون أن يخرج مبتسمًا منشرح القلب والخاطر يجد في الدنيا من حوله معان جميلة جديدة كانت قد خفيت عليه.

تتخلل الآن وجوهكم معالم السؤال المنطقي الثاني. كيف؟ كيف يحدث ذلك؟ وما الذي توفر لهذه الصيدلية دون غيرها؟ ومن أين تأتيها هذه الثقة التي تضارع الغرور؟ ها أنا أقول لكم الحق ولا شيء غيره.

الواقع أننا رغم كوننا صيدلية عريقة قديمة ترفل رفوفها في مختلف المستحضرات والتركيبات والأدوية، إلا أن أصحابي أدركوا منذ أول يوم لهم حقيقة تغيب دومًا عن ناظر الجميع. الحقيقة تقول إن الشفاء يتجاوز مجرد استخدام الأدوية الكيماوية. الشفاء لا يتأتى باستخدام قرص منوم، أو كبسولة مسكنة أو حقنة منشطة. الشفاء في داخلنا، في ابتسامة صبوحة ترسمها في وجه مريض ضاق بعالمي الطب والصيدلة، في حديث رقيق مع شخص يحثه الاكتئاب على فعل ما يأباه العرف والدين. في الاستماع والإنصات إلى شخص مصاب بالفصام تتهيأ له أمور غريبة كابوسية، يرى نفسه في عالم متوحش، مضطهدا عدوًا لكل الناس. إن أمراضنا في الغالب بسبب أنواع من الكبت الذي نعيش فيه، بسبب غياب الآخر وافتراقه، بسبب احترازنا المبالغ فيه منه وتجنبنا له. مرضنا الحقيقي هو الخوف والقلق، الخوف على النفس والقلق على الأهل من الآخرين وما عساهم يفعلوه بنا.

حقيقي ما قاله (سارتر) يومًا ما عن أن الجحيم هو الآخرون، نظرات الآخرين، تلميحاتهم، تعليقاتهم وإرادتهم الدفينة بداخلهم لا يطلع عليها أحد. لكن القيمة الجديدة والحقيقة الكبرى التي أضافتها صيدلية السعادة وأكدت عليها وزرعتها بين الناس هي أن الآخر أيضًا قد يكون الفردوس والنعيم المقيم. وما السعادة والحزن إلا ترتيبات مختلفة لمجموعة علاقات بيننا وبين الآخر.

ولا يظن أحدكم أن هذا حدث بين يوم وليلة، وأنني منذ أنشئت كانت هذه سيرتي الأولى. لا، فلذلك تاريخ طويل وقصة لا مندوحة من إطلاعكم عليها وإخباركم بمجرياتها، وكيف تنقلت من طور إلى طور ومن يد إلى يد هما - بالضبط - الشيء ونقيضه.

برزت إلى الوجود ملكًا لصيدلي لا يعرف للضمير معنى أو وجودًا. كان الرأس المدبرة لتلك الأفانين التي يُقبل عليها المدمنون والباحثون عن الروحانية فيما لا روحانية فيه. من الواضح طبعًا أن الشيطان لا يفهم في الصيدلة ولا يدرك الطب ولا يستسيغ الهندسة والفيزياء والكيمياء، لكننا نفعل كل ما يخفق فيه بالنيابة عنه. وبالتالي نوجه كل هذه المجالات وجهات شيطانية شريرة، تجعل الشيطان نفسه مشدوهًا متعجبًا لهذا الإنسان بعالمه الذي يحويه برأسه.

الصيدلة التي تنتج أقراص الهلوسة، الطب الذي يتاجر بأعضاء البشر، الهندسة التي تخرج لنا عمارة تسقط بعد شهر من بنائها..

لو لم نقم نحن بذلك كله، كيف كان سيحظى هو بهذه الفرص الخطيرة التي تجعله منشرح القلب والبال، مطمئنا لأقرانه من بني البشر الذين يوفرون عليه مجهودات شاقة، بل ومستحيلة؟

كان هذا الصيدلي - بعبقرية الشر التي يمتلكها - يبتدع طرقًا مختلفة متجددة بحيث لا يكاد يكتشف الصيادلة لغز أحدها حتى يجدون أنفسهم ضحية حيلة أو طريقة أخرى. أصبح مع الوقت ملجئًا لكل ضال عربيد لا يدري كيف ولا أين يجد أدوات الإدمان ومستثيرات النشوة.

ذات يوم دخل عليه أحد هؤلاء المغيبين وطلب منه دواء نادرا لزوم ضبط " الطاسة" كما يقول. ولما لم يمِل معه الصيدلي هذا، قامت مشكلة كبيرة ومعركة حادة آلت في النهاية إلى غلقي لفترة من الدهر وعرضي للبيع. حيث أصبحت سمعة الصيدلي إياه غاية في السوء، وبدأت الأخبار تنتشر إلى الجهات الصيدلانية المختصة بمراقبة أنشطة الصيدليات والإشراف عليها. ثم إنه لم يعد يقدر على المجيء بعد أن توعده ذاك البلطجي بالويل والثبور، في ذاك اليوم المشئوم.

جاء المشتري الجديد، وابتاعني بثمن مناسب، بل بثمن مغر جدًا بالنسبة للسمعة الطين التي ألحقها الآخر بي. أصبحت منذ تلك اللحظة ملكاً له.

في الأسابيع الأولى أدركت أن ثمة رأس وفكر مختلفان، فلسفة جديدة لا جشع فيها ولا انتهازية ولا سفالة. استطاع صاحبي كسب ود الناس

من حوله، وتمكن في فترة وجيزة من قطع أرجل هؤلاء الصعاليك، باللين تارة وبالشدة أخرى. اكتسب على صغر سنه توقير واحترام الكثيرين، مما لم يدع فرصة لأي عربيد للتعدي على الصيدلية ولو بمجرد طلب ما يغيبون به عن الواقع والحياة.

بعد السنة الأولى، اكتمل بالنسبة لي المنهج الذي يتبعه صاحبي. هو مبدأ ينظر للصيدلة لا من حيث أنها عمل ربحي فقط، لكنه أخلاقي وخدمي في المقام الأول. عرفت من خلاله أن مهمة الصيدلي تتعدى مجرد القيام بعملية البيع والشراء التي يمكن لأي شخص غيره القيام بها ومزاولتها. وفهمت عندئذ أن الزبون لا تربطنا به فقط نقوده، وأن مسئوليتنا تجاهه تحتم علينا الاستماع له والتخفيف عنه، وزرع الأمل بداخله ما كان لنا إلى ذلك سبيلًا. أما ابتزاز المرضى واستغلال جهلهم بمجال لا يفهمون فيه شيئًا فأليق بمجموعة نصابين لم يتعهدوا يومًا باتقاء الله في مرضاهم.

كان صاحبي يقول: "ثمة نوعان من المرضى، مريض يغير الأمل ويصحح من حالته المرضية، وهذا لابد لنا من تغذيته بالأمل على الدوام حتى يتم له الشفاء. وآخر لا حيلة للأمل عنده، فحالته محتومة معروفة العواقب، وهذا أدعى لزرع الأمل فيه، وتقوية الإيمان عنده. ذلك أنه لو كان القدر محتومًا والبلاء واقعًا لا محال، والشفاء منعدم بالنسبة له، فليعش ما بقي له مرتاح البال مطمئن القلب ميسور الجنان".

ومعنى ما سبق كله أن الأمل هو سلعتنا الدائمة التي نوزعها على الجميع. نوزعها بالمجان فوق كل روشتة تخرج محملة بمواد كيماوية صماء.

ولأن المبادئ المحترمة لا تقوم بمجرد كونها محترمة، ولأن الاحترام ليس سببًا كافيًا، ولا شرطًا لازمًا لنجاحها؛ فقد كان من اللازم ابتداع تعليمات وقوانين خاصة، يندر تواجدها في أي مكان آخر.

لم يكن صاحبي – مبدئيًا- يقبل الوساطة كمبرر لأي فعل. المبرر الوحيد المعقول عنده هي الكفاءة. كان يضع اختبارات عدة لابد وأن يمر بها كل من يريد العمل معه.

تلك الاختبارات كانت تبين الميول العلمية والأخلاقية لدى الأشخاص المتقدمين للعمل معه.

ولصرامة الاختبارات المتبعة، توفر لصاحبي جماعة من الصيادلة والمساعدين يعز أن يجتمعوا هكذا في مكان واحد دون جهد مسبق، مبيت.

مع مرور الأيام، يصبح لصاحبي كل سيماء سقراط المعلم الأول، فيما عدا دمامة سقراط المشهورة عنه، والتي تحولت في صاحبي إلى دماثة أخلاق لا تكاد تسعها الكلمات وصفًا. لكنه من ناحية المريدين فقد أصبح له مريدون كثر، يتعلمون منه مبادئ لم تشتمل عليها مادة قانون الصيدلة التي كان يستذكرونها من أجل الامتحان في الجامعات.

٢..

من الطبيعي في هذه البلاد أن يكرس خريجو الشق العلمي كل جهدهم وطاقتهم من أجل المواد العلمية البحتة. تجعلهم أعباء الدراسة -ومن ثم الحياة- في عزلة تامة عن الجانب الأدبي من هذا العالم. نحن نرى أول الخريجين- صاحب الترتيب الأول على الدفعة- يكاد لا يتحصل على قدر كاف من الثقافة العامة، تاريخ أو فلسفة أو أدب. وفي حين تتقلب المعادلات الكيميائية الجاهزة في دياجير عقله، نجده خاليًا تمامًا من اسم علم من الأعلام. وبذا تصبح هناك فجوة بين ما يدرسه خريجو الشق العلمي من علوم تطبيقية تجريبية وبين ما يعرفونه من الجوانب الوجدانية الروحية.

عندها، يتخرج من الجامعات نوعيتان من البشر لا ثالث لهما: نوعية تشبه الماكينات الآلية في صرامتها، لا فكر ولا عاطفة؛ ونوعية أخرى لا تتحصل على أصول المنهج العلمي في التفكير والبحث والاستنتاج، وكلاهما نصف إنسان لو صح أن يكون هناك ما يمكن تسميته "نصف إنسان". فما نعرفه أنه إما إنسان أو لا شيء على الإطلاق، فأجزاء الإنسان حيوانات أو نباتات أو جمادات.

ذلك ما استنتجته من أحاديث صاحبي التي – من حين لآخر- يدلي بها في جلسات أنس يجتمع فيها بفريق عمله. كان النقاش والكلام يتخذان طابع ما يمكن نعته بصالون أدبي. ولم يكن هو ليبدُ ضجرا وضيقا بذلك، بل يحفز عليه ويدعمه. فمن وجهة نظره: ما المانع أن تكون الصيدلية صالونًا أدبيًا بحق؟ ألم يسبقنا حلاق بشارع شبرا، جعل صالونه ملتقى

أدبيًا وسُمي "صالون الحرية الأدبي"؟ وكان صاحب الصالون الأستاذ الشاعر المجيد "حسن البطريق"؟

ولأول مرة - ربما في تاريخ الصيدلة- نجد صاحب صيدلية يصنع رفًا في مكان أمين يضع فيه مراجع علمية وكتبًا أدبية وفكرية، لزوم الإطلاع في أوقات الفراغ. وهذا تالله - على مدى ما سمعت - لأمر غريب لا يسهل تصديقه، ولكنها الحقيقة أرويها لكم كما أطالعها في كل لحظة.

كنت أسعد حين كان يبرر تناقضات عالم الصيدلة في واقعنا العربي المعاصر. تعجبنا يوم أخبرنا أن أول صيدلية في التاريخ كانت في مصر الفرعونية؛ تحديدًا، في بلدة صغيرة بأسيوط اسمها (أبو تيج)، ومن اسمها أشتقت لفظة Apotheke في اللغة الألمانية والتي تعني صيدلي. ثم إن ثاني صيدلية كانت في بغداد عام ٧٥٤، ولم تظهر بأوروبا الصيدلية بالمعنى الدقيق للكلمة إلا مؤخراً جدًا ربما حوالي عام ١٥٤٢. ولازالت أول صيدلية أوروبية تعمل حتى يومنا هذا. هم يعرفون كيف يسوقون تاريخهم الضحل جيدًا، وبمهارة. أما نحن، فنعرف كيف نهدم تاريخنا العريق بكد واحتراف.

كانت لصاحبي نظرية طريفة - غاية في الطرافة- ترى أن الانفصال الحادث عام ١٢٤١ بين الصيدلة والطب، هو انفصال مجحف في حق الصيدلة. فعنده لم تنفصل الصيدلة عن الطب كما يروج البعض، وإنما يجدر بنا القول بأن الطب هو الذي انفصل عن الصيدلة.

ومن رأيه أنه- أي الانفصال- كان مجرد تحديد للألفاظ والمهام الموكل بها كل من الطبيب والصيدلي. أما لماذا يعتنق هذه الرؤية بالذات، فله في ذلك برهان وحجة يقبلان النقاش لمن أراد، وإن كانا على شيء من القوة. فهو يقول في ذلك ما فحواه: "في الأساس ظهر الشغف بالبحث عن الدواء، ومنذ اللحظة الأولى كانت عينا الإنسان على الترياق والعلاج، لم يكن يعنيه وقتئذ كثيراً معرفة ماهية المرض بقدر اهتمامه بمعرفة الطريقة التي يقضي بها عليه. وبمعنى أكثر وضوحًا، لم يهتم الإنسان في البدء بتشخيص المرض، بل بعلاج هذا المرض. لذلك نجد مثلًا وصفة فرعونية قديمة هي "وصفة كتاب قديم مقلي". وللفراعنة فنون في هذه الوصفات المقززة التي كانت تهدف إلى تليين البطن لطرد المرض، الذي لا يعرفونه. ثم نجد في بردية أخرى تخلفًا واضحًا وملحوظًا في مجال تشخيص الأمراض- المجال المنوط به الأطباء- حيث حدد الرجل وقتها المرض قائلًا: خلل ما، في مكان ما، في الجزء الأسفل من الجسم. وهذا لعمري لا يعتد به كتشخيص، بل هو مثار سخرية، حين ننظر إليه اليوم.

لكن على كل حال لم يتوقف الإنسان الأول عن وصف الدواء وكتابة الوصفات، ولو حتى التجأ أحيانًا إلى طقوس سحرية وأفانين عجيبة، لا تُعتبر من بنود الصيدلة، وإن كانت من وصفات العلاج التي ظن نجوعها.

ولم ينضبط علم الباثولوجي ويتحدد إلا مؤخراً جدًا في القرنين السابقين الأخيرين، وعلى طول ما سبق هذين القرنين كانت الصيدلة هي المتضلعة، القائمة- لا بعملها فقط- بل وبمهمة الطب أيضاً.

كان أصدقاء صاحبي يظنونه رجلًا متعصبًا لمهنته، وذلك ظن السوء لو كانوا يعلمون. فقط هو يبحث عن الحقيقة كما يرتئيها، أينما كانت وكيفما بدت، لا يشترط فيها معايير شخصية، أو نفعًا وقتيًا يخصه. وهو فوق ذلك لازال يرى أن مهنة الطب هي أشرف مهن الدنيا قاطبة كما وصفها (أبقراط) منذ آماد، لكن شرف المهنة يُستمد من القائمين عليها. فإذا أخرج لنا المجتمع نماذج لا تفهم جيدًا الدور الذي أنيط بهم، والشرف الذي يجب عليهم الحفاظ عليه، ضاع كل شيء ولم يبق إلا عبث، لا مهنة كريمة شريفة.

وكذا استطعت بفضل صاحبي أن أصبح نموذجًا فريدًا بين الصيدليات. لكننا - نحن، أنا، صيدلية السعادة- نأمل خيراً في أن تمتد هذه التجربة لتنضوي تحتها صيدليات أخرى، بحيث يأتي يوم من الأيام يكون هذا النموذج هو النموذج الأوحد المتعارف عليه في هذا البلد.

** ** **

عقدة المساعد

كم تمنيت لو كان عالم النفس النمسوي (سيجموند فرويد) موجودًا لبحث هذه النوعية من العقد النفسية. لهدف ما صعد إلى الوجود حرفي ما سُمّي فيما بعد باسم "الصيدلي". ومن الطبيعي أن الصيدلي يحتاج إلى مساعد بجانبه يعمل معه، ومن المفترض أن الاثنين يعملان معًا لإظهار عملهما بشكل لائق. غير أن المساعدين يرون بعد فترة من التدريب وحفظ أسماء الأدوية أنهم أحق بهذه المهنة - الصيدلة - من الصيادلة أنفسهم. فما وقف صيدلي يؤدي عمله في صيدلية قط إلا وجد مساعدًا يتعالم عليه. ومن أكثر المشاهد إثارة للضحك مشهد مساعد يصف دواءً لمريض دون الرجوع للصيدلي. يذكرني ذلك بفريد شوقي في فيلم له، ظن أنه قادر على فتح عيادة خاصة يعمل بها كطبيب مستقل، فقط لأنه عمل لفترة طويلة مع طبيب متخصص. وفي أكثر المشاهد سخرية نرى الممرض المسكين يصف دواءً لأحد المرضى المغشوشين قائلًا في نفخة كاذبة:

-آه، أنا هكتبلك هيرماتوتافين، وبريموتستون ٢٥...

كذلك يفعل (مصطفى) مساعد الصيدلي في الصيدلية التي أعمل بها. ليس ثمة ما يريبه حين يصف دواءً لمريض كبد أو كلى. هو يردد دومًا ما يسمعه كثيراً على ألسنة الصيادلة، لكن مجرد ترديده لما يقولون يُشعره بزهو وفخار، لا أدري ما سرهما؛ ويرى حين ذلك أنه الوقت المناسب تمامًا ليحل محل هؤلاء المدللين الحافظين لكلمتين لاتينيتين يمكن لأي إنسان أن يحفظهما في أي وقت ليرطن بهما أمام الناس.

أحيانًا تصل الأمور لدرجة أن (مصطفى) يجادلني فيما أصرح به للمرضى، مُدخلًا تعديلات قد لا تكون مناسبة للحال الذي نحن بصدده. هو رأى صيدلي آخر يصرف دواءَ مختلفًا لنفس الحالة أو ما يشبهها. لا يستقر في وعيه قط أن بعض الفروق الطفيفة الدقيقة قد تستدعي أحيانا كثيرة تغييراَ جذريًا في خطط العلاج المختلفة، فتُلجئنا إلى ما لا يخطر له على بال. ما الذي يدفعنا أحيانًا لكتابة دواء مدر للبول لفتاة يتساقط شعرها؟ لماذا نصف كثيراَ موسعًا للشعب لامرأة على وشك وضع مولود جديد؟ ما الحكمة وراء كتابة الفياجرا لطفل عمره سنة؟! تلك أسئلة لن يفهمها قط، مهما حاول السعي أو الإلمام.

سوء حظ الصيدلي وتبسطه مع المساعدين وتكرار الحالات التي تأتي إليه ليعالجها، كل ذلك يجعله فريسة للمساعدين الذين يريدون الانقضاض على مهنته بفكاك ضبع غاشم.

إنه نفس الموقف الذي مرّ به أعرابي حين صاحب في سفره (أشعب)، ملك الطفيليين. حط الأعرابي رحله وأناخ مطاياه وأفرد عدته ليبيت ليلته في مكان آمن. طلب الأعرابي من (أشعب) معاونته لإنزال الحاجيات، فأبى متعللًا بآلام في ظهره شديدة. وحين أسند إليه مهمة إحضار الحطب لطهي الطعام، اعتذر لأوجاع قدمه غير المحتملة. ولما سأله أن يقدح الزناد لإشعال النار التي يُطهى بها، رفض لحساسية في صدره. أما لما دعاه الرجل لمشاركته الطعام، نظر له (أشعب) وقال:

ـ والله إني لأخجل من نفسي، فكلما طلبت مني شيئًا رددته عليك، متعللًا بقصور ما.. أما وإنك تدعوني الآن لآكل معك، فلن أستطيع ردّك، فأفسح لي أشاركك ما تأكل معينك على الطعام.

المساعدون أيضا يريدون ردم كل ما مر به الصيدلي يومًا ما، ليشاركونهم اللحظة الأخيرة الخاصة بهم وحدهم، ولا يحق لأحد سواهم عيشها.

وليت الأمور تقف عند الجزء الكوميدي الساخر منها، ففي مواقف معينة تنقلب الأمور وتصبح مأساة حقيقية.

فهذا مساعد صيدلي، وهذه مريضة، وذلك طفل رضيع مريض، حرارته مرتفعة، وتلك التي بين يدي المساعد روشتة، من أجل مرض الطفل. وهذه صيدلية كما تعلمون، لا تعتمد في إدارتها على وجود صيدلي، مكتفية بمساعد لتسيير أمورها. وهذا خط الطبيب الذي يذكرنا بالكتابة المسمارية القديمة، أو الديموطيقية التي كانت تكتب بها النصوص النخبوية لكبار رجال الدولة. والمساعد للأسف ليس (شامبليون) ولا هو صيدلي، فلو أنه الأول لفك الرموز، ولو كان الثاني لاستنتج المراد.

أما وإنه لا هذا ولا ذاك، فإن الأمر قد استفحل، واختلط عليه، فأدخل الظن في حين لا ينفع إلا اليقين. وهنا ذهب المساعد إلى أقرب رف وأحضر دواء الـ(ثيوبنتال) بدلًا من الـ(ثيوفينيكول)، ولك أن تعرف أن

الثاني مضاد حيوي للعدوى عند الأطفال، أما المصروف فمخدر يحذر استخدامه للكبار قبل الأطفال.

أما المشهد الذي واقعته حقًا، فكان حين صرف أحد المساعدين، بينما كنت أقضي حاجتي، دواء الميثوتريكسات بدلًا من الميثرجين لامرأة حامل، على وشك الوضع. ومعروف أن الميثرجين يحث بطانة الرحم على التقلص والانقباض لتسهيل وضع الطفل، بينما الميثوتريكسات يستخدم لعلاج الروماتويد، ولا يخفى أنه يسبب تشوهات شديدة بالغة للأجنة في رحم أمهاتهم.

لكن يشاء الرحمن أن تنقضي الحاجة سريعًا وأنجد الموقف الذي لولا ثوان معدودات، لتحول لكارثة حقيقية.

** ** **

أيكهورنية

الشمس حامية اليوم، وفي مثل هذه الظروف من المناخ الحار يمكنك الاستمتاع بتفاصيل الطبيعة فيما تبقى من ريفنا البدائي الجميل. الشمس حرية وانطلاق والنور إذن للانتشار والاسترسال هنا وهناك. لا يفوت يوم دون أن آتي إلى هذا المكان حيث النخلة العَقِرة على ضفة تلك الترعة الصغيرة. تعودت منذ سني عمري الأولى، أيام ذهابي إلى المدرسة وإيابي، الوقوف على هذه القنطرة البسيطة التي عانى أهل تلك البلدة من أجل إلزام المسئولين ببنائها. تلك قصة لم أشهدها يحكي الناس عنها كثيراً، ويتحاكون. قبل بناء تلك القنطرة، كان أهل الكَفر يمرون على جذع نخلة تصل ما بين ضفتي الترعة الراكدة.

عند بداية الترعة، تنصب المياه الآتية من نهر صغير عبر أنبوب كبير. تدخل المياه تحث الخطو، لكنها سرعان ما تصطدم بركود الترعة الذي يعطل سعيها ويجعلها تقبع مكانها دونما حراك. عبر الأنبوب، ترد الأسماك الصغيرة والكبيرة والقراميط والكابوريا النهرية والإستاكوزا، ثان أكثر الكائنات النهرية ضررًا وأذى. إن بقايا الطعام التي يلقيها أهل البلدة في الترعة يجعلها عرضًا مغريًا يصعب مقاومته بالنسبة لكائنات همها الأكبر والأوحد هو الحفاظ على النفس عن طريق البحث عن القوت.

كنت حين أقف بمنتصف القنطرة المنتزعة عنوة، أسرح في عوالم مياه الترعة، ذلك عالم يستحق المتابعة. إن العوالم من حولنا كثيرة، كيف تأتى لنا الظن بأن العالم الوحيد المسموح به هو عالمنا نحن؟ ثمة عوالم في

كل شبر، وتحت كل نقاب، في نقطة الماء عوالم مختلفة وكائنات تتوق لظروف أحسن وأوفر. في الذرة عوالم وسيناريوهات لا تنتهي، وكلما ظن العلماء أنهم وضعوا يدهم على نهاية الطريق، اكتشفوا دهليزًا آخر يقود لطرق أخرى طويلة ومتعرجة ومتشعبة.

ها أنا اليوم أخطو عامي الخامس والعشرين، وقد تخرجت في كلية الصيدلة، لكن مازال شغفي الدائم والأبدي يدفعني للوقوف ومراجعة المنظر الذي لا أمله ولا أظن قط أنني تقصيته بشكل كاف ولا أعطيته حقه من المتابعة.

منذ أكثر من عقد من الزمان وأنا أراقب التغيرات الحادثة في طبيعة هذه الترعة الصغيرة. في أوقات الجفاف كنا ننزل إليها لنحاصر أسراب السمك بين كثيبين من الطين؛ ونغترف بأيدينا، كلٌ على قدر طاقته.

حوالي هذه الفترة لاحظت أعدادًا قليلة من نبتة (الأيكهورنية) تتسرب إلى الترعة في هدوء واتئاد. كان شكلها جميلًا، يجذب ناظر طفل صغير، يستهويه كل ما هو جديد على العين، حتى يملّه. أحيانًا كنت ألتقط بعضها، وأظل أعصر فيها، ضاغطًا إياها حتى ترشح بأكوام كثيرة من الماء المختزن بداخلها. عرفت وقتها أنها نبتة شرهة، تمتص مياه الترعة، مستنزفة إياها. أحالني البحث والشغف بالموجودات من حولي إلى الاطلاع على تاريخ هذه النبتة منذ سماها عالم نبات ألماني باسم وزير ثقافة بروسي قديم اسمه (فريدريش إيكهورن) حتى استخدمتها السلطات لتزيين نافورات العائلة المالكة أيام (محمد علي باشا).

بعد وقت قليل فوجئت بآلاف النباتات التي باتت تسد مجرى الترعة بالكامل. في جبروت وطغيان، احتلت النبتة الترع والمصارف والجداول والقنوات واليعابيب كلها. إنها كالسرطان لا تعرف حدًا ولا رادعًا. كانت تتصرف وكأنها دكتاتور عظيم متصرف في أقدار الكائنات النهرية والبشرية أيضًا.

فيما بعد سنحاول جاهدين مكافحة هذا الطغيان باستيراد داهية آخر جديد قادر عليه. مثلما فرحنا يومًا لأن طاغية كهتلر سيخلصنا من طغيان الاستعمار الإنجليزي، وأبانت التجربة في كلا الأمرين عن خرف عقولنا وسوء تقديرنا. نحن لا يعنينا أبدًا من الخاسر ومن المنتصر في تلك المعارك التي يكون فيها كلا الطرفين شراً. ولا يجب أن ندعم أحدًا أو نأسى لجانب على حساب جانب آخر.

طفلًا كنت أنا. حيوان جديد يرتع في المياه الضحلة، وعلى ضفتيها يبني أوكارا طينية يتوارى فيها. بالنسبة للأطفال، يعتبر الحيوان أكثر إثارة من النبات. لذلك توجه ناظري من تلقاءه إلى الإستاكوزا الوافدة للقضاء على ورد النيل السفاح. كان ذلك مشروعًا ضمن مشاريع كثيرة تحاول مكافحة ضرر نبتة الإيكهورنية، تلك البغيضة.

كنت أنتظر بشغف بدء القتال والنزال بين طرفي المعركة التي توقعت الجهات الحكومية أنها ستنشب لا محالة. لابد أن يستعد طرفا القتال: ورد النيل والإستاكوزا، لمواجهة بعضهما البعض.

لكن انتظاري طال ولم تبدأ جولة ولو واحدة. اتفق الاثنان ضمنًا، واستغلا غباءنا المستفحل.

لم تستطع الإستاكوزا حبس نفسها وحرمان ذاتها من طعم السمك البلطي النيلي الجميل؛ فاتجهت ميممة إليه شطرها بعزم قدرتها. ليس من الذكاء أن يتوجه الواحد منا إلى طبق السلطة إذا صاحب ديكًا روميًا على مائدة واحدة.

لقد تركت الإستاكوزا أكوام النبات كما هي. وساعدها النبات بخنقه للحيوانات النهرية وتقديمها لها على طبق جاهز من الفضة. فالإيكهورنية يقلل نسبة الأكسجين الطبيعية اللازمة لتنفس كائنات النهر ويحجب ضوء الشمس عن الأعماق، ما يجعل الثروة السمكية في خطر حقيقي.

لم تبذل الإستاكوزا حتى جهد اصطياد رزقها والسعي إليه، أتى هو إليها يدق بابها في استسلام.

استشرى الفساد في الترعة وجن جنون الناس. تعلمت وقتها أنه لا يجوز دفع طاغية بآخر. ليس من المنطق القضاء على الشر بشر أقوى، ولكن الشر يُدفَع بالخير، حتى وإن ضعفت حيلته وعدته. الباطل مردود بالحق، لا بباطل أشد وأقسى. إن استتباب الأمر لأي من الباطلين أو الشرين لا يزيد الأمور إلا سوءًا.

سيخضع النهر بالكامل ولسنوات عدة للعصابة الوافدة عليه. وسيشقى أبناء النهر من أجل التضحية - في النهاية - بأنفسهم بين مخلبي الحيوان المتعطش للدماء.

شكل الإستاكوزا غريب، يذكرك بمدرعة عسكرية لها مخلبان فولاذيان؛ العضة من هذين المخلبين موجعة ومؤلمة بشكل لا يطاق.

سيمتنع الناس عن نزول الترع، الإيكهورنية مباءة للبلهارسيا؛ والإستاكوزا، لا أذاقك الله آلام عضتها.

سوف تظهر مقاومات معدودة من قبل الأسماك الكبيرة كالقراميط التي تأكل الإستاكوزا، لكن أثر تلك المقاومة رغم كل شيء محدود، لا نتيجة ملموسة تترتب عليه.

سأقف كما أنا على ضفة النهر أراقب صراعًا سياسيًا بمعنى الكلمة. عالم كامل من الإرادة والسعي، والنجاح والإخفاق، والطغيان والمقاومة.

لن تجدي أي حلول إلا حل الثورة. وبذلك، وفي يوم معين وجدت الكراكات تأتي لتطهر النهر من ضيف ثقيل، طال مكثه. هذا الضيف الذي طرد كل أهل البيت ليحيا هو وحده. قامت حملة واعية موازية لاصطياد الإستاكوزا وملاحقتها في خننها والفتك بها أنى وجدت، وإلقائها مهروسة مفرومة للأسماك المطحونة لتتغذى عليها، قالبين الصورة القديمة مائة وثمانين درجة. دائمًا كنا نخطىء فنقلبها ٣٦٠ درجة بحيث ترجع الأمور كما كانت دون وعي منا، حتى إن تاريخنا

يمكن تسميته تاريخ الـ ٣٦٠. سيرتاح الناس ويزدهر النهر وتدب الحياة مرة أخرى بعد أن أوشكت على الاختفاء.

سألاحظ أنواعًا من السمك الأنوم والبني والكراكير والمبروكة وقشر البياض والشلب، آخذة في الظهور مرة أخرى.

سيرتفع منسوب النهر الذي استنفذه النبات المتوحش. سيرتاد الناس المياه والقنوات آمنين- إلى حد ما- من مكر الحيوان الخبيث المنقرض، غير عابئين برؤوس الفتنة التي كانت تسكن طينهم وأرضهم ونهرهم.

سأجد من حين لآخر نبتة منسية تسرح في النهر شاردة يتيمة، وسألمح قليلًا جدًا من الإستاكوزا الصغيرة وشيكة الفقس والخروج من البيض. من الجيد الاحتفاظ ببعض من هذه الكائنات لتتذكر نجاحنا المؤزر ضدها. سنحكي للأجيال من بعدنا عن هذا النبات اليتيم وذلك الحيوان مكسوف البال، الساعي على ضفاف النهر في استحياء، غير قادر على رفع عينيه.

وستجري الأيام هنية شجية بهية.

فجأة، لا أدري متى ولا كيف حدث ذلك وجدت جموع النبات قد انتشرت مرة أخرى، وبشكل أكثر جنونية من السابق. سدت الأنهار وعطلت حركة الملاحة وقتلت ملايين من الأسماك وكادت تقضي على مياه الري مرة أخرى. في نفس الأثناء وجدنا الإستاكوزا تقف في بجاحة مشهرة مخالبها في الهواء، مهددة متوعدة، وراحت تعمل أدوات القتل والفتك بصورة مبالغ فيها.

ظل الناس يتساءلون عن السبب، ما الذي وقع وأحدث ذلك؟ كانت الردود كلها تؤكد على أن الكراكة لم تُنظف النهر جيدًا. وأن الأعداد القليلة التي نُسيت في النهر أو تم إعادتها بواسطة الغافلين إليه- بالإضافة إلى البيض الكامن للإستاكوزا والذي لم تطله الأيدي الثائرة- والرؤوس الكبيرة التي توارت بعيدًا في الطين متربصة... كل هذا أعطى لكلا الكائنين الفرصة تامة للانقضاض على جهودنا التي بذلناها، بينما كنا نحن نحتفل مخمورين بأعياد الانتصار المغبون.

ورحت أنا أقر هذا كله في استسلام هستيري؛ لأني شاهدت ذلك يومًا بيوم دون أن أفطن. لكنني لم أتوقع قط أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه مرة أخرى.

كنت أظن أننا توقفنا حين قلبنا الدنيا ١٨٠ درجة، لكننا أتبعناها بـ ١٨٠ أخرى؛ فرجعت الدنيا كما كانت.

وكأنك يا أبا زيد ما غزيت.

** ** **

ليلة طويلة

اعتادت أن تأتي إليه فيعطيها ما فيه النصيب. كانت تمطره بالأدعية التي تتمنى له الخير والبركة في الصحة والعمر والمال والولد. وكان حينما تأتى إليه في أوقات معينة، يكون كاهله فيها مثقلًا، يضيق بها ذرعًا ويحثها على النكوص وتركه.. بلطف تارة، وبشدة جارحة تارة أخرى. غير أنها كانت تتشبث به رغم ذلك وتصر على إلحاحها، حتى يفيض به فيقرر أن ينفذ لها ما أرادت، فقط كي تمشي وتتركه في حاله، يفكر فيما طرأ على حياته من مشاكل. لكنه مؤخراً أدرك سراَ غريباَ، ففي كل مرة يخضع لإلحاحها يستشعر راحة عجيبة تخفف عن كاهله حمله الثقيل. لم يكن يتغير شيء مما يضايقه، فقط يشعر أن ذلك الوابل من الدعوات الذي تمطره به لن يضيع سدى. يكفي أن له عند الله رصيدًا من هذه الدعوات ربما يتم تفعيل تأثيراتها في مشكلة ما أو موقف ما من مواقف الحياة الصعبة تلك.. فالدعوة والبلاء يعتلجان معًا حتى يوم القيامة..

كثيراَ ما كانت هناك مشكلات في حياته، بعضها يتم التعامل معه وحله، والبعض يستمر لفترات أطول.. إذن فكل تلك المشكلات التي تم حلها أو خمدت وسكنت ربما تكون نتيجة هذه الدعوات السحرية والتمائم التي تصبها تلك الأفواه المعدمة، يكفيها أبسط الأشياء وأقل القليل منّا..

نحن لا نعرف كيف نقيّم تلك الأشياء المتداولة بيننا، المتوافرة بين أيدينا. ماذا يعني كوب الماء المعدني البارد يقدمه خادم لرجل يجلس

بمكتبه المكيف في أعلى بناية من تلك البنايات العالية الحديثة أحد أيام الصيف شديدة الحرارة؟ لا يعني شيئًا على الإطلاق. لكن ماذا تعني رشفة ماء بالنسبة لرجل ضائع في بيداء لا أول لها ولا آخر؟.. إنها تعني كل شيء، تعني الحياة بأسرها.

تَعَلَّم أن في العطاء متعة غريبة لا تقل عن متعة الأخذ والكسب، لكن ثوراته رغم كل ذلك عليها لم تكن تنقطع تمامًا.. فهو يأخذها مرة بالعنف وأخرى باللين.. ولم تمل هي في كل الأحوال ذلك الرجاء قط: إبقى افتكرنى يوم فرحك..

رغم أنه وقتئذ لم يكن حتى يفكر في أي مشاريع للزواج أو يمتلك أي نية للارتباط.. لكنه حلم وأمل عقدت نفسها بهما على سبيل الاحتياط..

كانت دعواتها غاية في الحبكة والإبداع.. مجازاتها في الدعاء أدبية بشكل لا يوصف.. منطق الدعوة متماسك رغم التفافه حول نفسه بطريقة عجيبة ثعبانية.. من ذلك أنها كانت تقول: "إلهى أمك تحمل ولادك".. وهو تخطي للمدعو له بصورة مجازية أدبية عبقرية.. مع الإبقاء على المعنى المقصود بتمنيها سعة الرزق وطول العمر له ولأمه.. أو " أمك متشربش نارك".. هذه الدعوة -بالذات- مجال فسيح من الاستعارات المتداخلة والكنايات المتراكبة ما يجعلها تحفة أدبية بحق..

أعتقد أن «دانتي أليغيري» أخذ وقتًا طويلًا كي يصل بأسلوبه إلى ذلك الشكل الأدبي التام وتوليد مثل هذه الصور المحكمة الجذلة.. ولمن لا

يرى ذلك فليقرأ "الحياة الجديدة" من تأليفه.. فهذه القدرة على التباديل والتوافيق اللغوية مهارة بلا شك[1]..

أكثر شيء مصطنع فيها كانت محاولاتها للبكاء.. وتتبيل دعائها بمسحة من الدموع تجعله يتعاطف معها أقل.. وربما عاند وركب دماغه وصدها عما تريد بدون تردد..

ذات يوم جاءته كالعادة، طلب إليها أن تأتي غدًا في ميعاد محدد كي تأخذ ما فاء به ضميره عليها.. أخبرها ذلك ببرود أعصاب، لكنها أخذت تلك البشرى وطارت إلى كوخها تنتظر الساعات أن تنسلخ بعضها من بعض حتى يأتي الوقت الموعود.. استطال الليل البهيم ولسان حالها ينطق بأبيات «امرئ القيس» قائلا:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

لكن في حالتها هي كان الصباح أمثل وأفضل من كل الليالي والأيام..

باتت قابعة في ركن من أركان كوخها المصنوع من البوص والغاب بسقف مقفول عليها من القش.. هذا البيت ذاته – أو تلك العشة- موجود في فسحة فارغة أخذها الجيران "جراجًا" للسيارات..

[1] في الـ ″فيتانوفا″ أو ″الحياة الجديدة″ لـ″دانتي″ لم تكن موهبة ″دانتي″ قد اكتملت، كما أن ملامح اللغة الفلورنسية التي يكتب بها كانت في طور النضوج، لذلك نجد ″دانتي″ في نهاية ″الحياة الجديدة″ يقر بعجزه عن التعبير الدقيق عما يخالج نفسه، واعدًا حبيبته بأنه لن يكل عن تطوير قدرته الأدبية، وقد صدق ″دانتي″ فأخرج أحد أكمل الأعمال الأدبية ″الكوميديا الإلهية″.

كان لها من الأولاد ستة - هم في الحقيقة أحفادها- أعمارهم تتراوح ما بين الخامسة والسادسة عشر.. هجر آباؤهم المكان إلى ساحات

وفسحات أخرى وتركوا لتلك الجدة الشمطاء مهمة تربية الأطفال.. لم تكن التربية بالنسبة لهؤلاء تعني أكثر من لقمة خبز وشربة ماء توفرهما الجدة لأحفادها.. فليس يهم هاهنا التربية الخلقية أو الثقافية أو الروحية.. أقصى أمانيهم أن يكبر الأطفال ليساعدوا الجدة في تسولها وتسكعها..

كانت الليلة شتوية قارصة.. الأطفال بدون أي ترتيب يتناثرون في الحجرة هنا وهناك.. على كل اثنين منهما لحاف واحد مهترئ يتنازعانه؛ يتناوبان التلحف بالغطاء لفترة من الوقت، كل منهما يتدثر به ليستدفيء قبل أن يسحبه الآخر من عليه عندما يلسعه البرد..

أما هي فباتت تفكر وتتذكر ذلك الرجل الرءوف.. ترى ماذا يخبئ لها؟ أمبلغ من المال؟!.. أقطعة من اللحم؟.. أكومة من الملابس المستعملة ترقع بها تلك الأجساد المنهكة؟!.. أم تراه سوف يعطيها دواءها الشهري بالمجان.. أو أو أو ..

كان مصدر النور الوحيد قنديل من تلك القناديل القديمة الذي يقدح بداخله الزيت فيشتعل.. وهو بجانب كونه مصدرًا للإضاءة مصدرًا للدفء كذلك.. لكن أجارك الله، فنفس تلك النعمة التي تقيهم شر الشتاء تشويهم وتغليهم فى الصيف حين يستعينون به في الليالي الخانقة للرؤية..

جلست العجوز بعد أن ذهب النوم بعيدًا، تتأمل تلك الأكوام من اللحم، وكيف يسوق الله لهم رزقهم يوميًا دون تدبير منها. فهي

تسعى بيد سفلى وتسعي إليها الأياد العليا دون مقدمات.. فالله لا ينسى أحدًا.. كان كل خزينها من القوت قد فرغ، وجاءت بشرى ذلك الرجل الكريم إغاثة وعون، أيا ما كان نوع العون.. فهم في نقص شديد لكل حاجيات البشر الأساسية التي تحمي وجودهم..

آلام مفاصلها تشتد مع شدة البرد ، وعمود فقرها المنحني يلح في الشكوى.. وجسدها البالي كله يؤول للسقوط.. لكن لغاية ما تماسك كل هذا كي تكافح من أجل الحياة متحدية الموت من أجل تلك الحيوات التي تتعثر في خطاها، الملقاة أمامها..

انقضى الليل بأعجوبة.. وقطع الصبح شوطًا وجاء الوقت الموعود.. أتته ترفل في شوق، تكتنفها فرحة عارمة وأمل كبير.. التهاب المفاصل قد ولى والضغط ذهب.. أما حساسية الصدر، التي أصيبت بها بسبب قنديل غرفتها الذي يشع هبابًا، فلا أثر لها. تنفسها منتظم والسعال متوقف وكل شيء يبدو على ما يرام.. لم يبق غير المنحة، العطية الموعودة..

دخلت عليه بوابل من الدعوات وسيل من الأمنيات الطيبة.. تلقى الشاب كل شكرها وحمدها بامتنان، وبأسف شديد أخبرها أنه نسي ما وعدها به في البيت واستأذنها لو انتظرت لليلة أخرى واحدة.. سألته: ألا يمكن اليوم بأي حال؟!.. فتأسف منها قائلا ألا مجال لذلك.. فهو وحده في العمل ولا سبيل للذهاب والإياب..

إن الكلمة التي ألقاها إليها بالأمس لم تستدع منه كثير اهتمام.. لكنها أخذتها بكل اهتمام ممكن.. وبكل جدية محتملة.. قالها من فمه وأخذتها بشحمها ولحمها ودمها وأعصابها.. إن الفتات الذي قد يقع من البعض هو الموائد المبسوطة في كوخ كذلك الذي تحيا فيه تلك العجوز..

-معذرة، انتظري فقط لغد..

وانتظرت..

ولا ندري بعد ذلك شيئا مما حدث..

** ** **

□

□

الداء والبلاء

السادسة صباحًا، بالأمس جرت الأمور بشكل مناسب إلى حد ما. استيقظت كما فعلت اليوم، في نفس الساعة بالضبط. مشيت كما المنومين مغناطيسياً، مستندًا على أثاث البيت حتى وصلت إلى الحمام، كما بالأمس بالضبط. لأنشطتي الليلية سطوة نهارية لا يمكنني أن أفلت منها قط.. كم أود لو تمكنت يومًا من بناء حائط خرساني يفصل ما بين ليلي ونهاري.

في الحمام تتداعى الأفكار، تتنزل، من أين؟ لا أدري، لكنني أتعرف في داخلي على خصائص سقراطية لا تعبر عن نفسها باقي أوقات اليوم. تستطيع هضم أفكار (لايبنتز)، واستيعاب آراء (ديفيد هيوم)، والتشبع بفلسفة (هيجل) وأنت في الحمام. لا أدري، لكني أعتبر أن أكثر الأفكار تطرفًا، وأكثرها اعتدالًا أتت إلى الوجود عن طريق الحمام. ترى هل كانت فكرتي هذه تنطبق بحذافيرها على (جان بول مارا)، الذي كان يقضي معظم أوقاته في مسبح صغير مرفق بحمام منزله؟

ها هي الأفكار تأخذني مرة أخرى وأنا في الحمام، ألم أقل لكم؟ ما لي و(جان بول مارا) ذاك؟ لن أدع الأفكار تستدرجنا أكثر، سوف أجاهد نفسي للخروج من هذا المكان الأكثر قرفًا، والأشد جاذبية، رغم ذلك.

البلكون هو مكان جميل يمكنك من خلاله توثيق ما أوحي إليك في الحمام.

الطلبة في مثل ذلك الوقت يومياً يتحركون أفواجًا إلى مدارسهم. هل من الدقيق وصفهم بالطلبة؟ هم لا يطلبون شيئًا في الحقيقة، بل ولا يعرفون ما يجب عليهم أن يطلبوه. فلنقل التلامذة إذن. لكنه لم يبق أستاذ ليتسنى له تلامذة. تلك نعوت قديمة لا يجوز وصف تلك الكائنات الحداثية بها.

فلنقل: "تلك الجموع الذاهبة إلى مكان ما"، ذلك أليق بسعيهم اليومي وإيابهم، من وإلى ذاك المكان الكائن في ناحية ما من النواحي. لا تقل لي إن هذا المكان هو"المدرسة".. أنت مخطئ، لم يعد ثمة ما يمكن تدريسه.

بعد قليل عندما أغادر بيتي، سنجد سوياً هؤلاء الأمهات اللائي يقفن أمام أبواب المدارس - تجاوزًا- وعلى جوانبها، طيلة اليوم في انتظار أفراخهن الصغار، أو لنقل في انتظار "شياطينهن التسمانيين"[1]. هذا المنظر لو رآه أحد غيرنا، لخمن عددًا كبيراً من العباقرة والعظماء تخرج من كنف ورعاية هؤلاء النسوة المتشحات بألسنة لا تكف عن الكلام والنميمة قط. غير أن الأمر مخالف تمامًا، فأكثر هؤلاء الأطفال - متجاوزين لمرة أخرى المعنى المحدد لهذه الكلمة. بعد عقد ونيف سيكونون شلة المتسكعين والبلطجية وقاطعي الطرق والعاطلين.

[1] الشيطان التسماني: حيوان ثديي لاحم صغير شرس يعيش بجزيرة تسمانيا في أستراليا.

فلنترك ما سنراه في الشارع لتوصيف ما نراه حالياً من شرفتي ذات الخصائص الفلكية الممتازة.

تلك شرفة مميزة في منزلي هذا، تستطيع من خلالها التواصل مع أبناء الأرض وأهل السماء. يمكنك فهم المعنى المتدحرج بين أولاد الطين وأبناء النور. تراقب الحقيقة حين تهبط نقية خالصة، ليلوثها أفراد الأسرة الأرضية، ويحرفونها ويغيرون في خلقتها، ثم يتضاحكون فيما بينهم ليغرقوا من جديد في عبثهم السرمدي.

في شرفة معينة، من طابق محدد في بناية تمتد بعيدًا إلى الآفاق، يمكنك معاينة التناقض الذي وقع فيه الكون، بل التناقضات كلها.

ستجد الطير الصادح وتسمع الكلب النابح. تشهد الأجرام الملتزمة على عظمتها وكبرها، وترى الإنسان المتجاوز على تواضعه وصغاره.

تلك الفلسفة اللعينة التي تعرقل كل فكري وتستحوذ على كل كلامي.. تبا لها. دعنا منها الآن ولننخرط في الأدب قليلًا.

ذلك صبح جميل، تكاد تستمع إلى صوت أنفاسه. يخيل إلي أني لو وضعت يدي على نكت الأرض لاستشعرت نبض القلب وهو يضخ عصارة الحياة في أرجاء المعمورة.

سوف أحتسي كوب القهوة الآسر اللعين، لا ينفتح لي جفن تمامًا بدونه. أتجرعه على مهل، أعرف بدقة أن هذا التمهل يجعلني أصل إلى عملي متأخراً. لكن لو علم المديرون كيف أن القهوة لا يمكن تعجل شربها،

لأعطوننا جميعا ساعة "بدل شرب قهوة". سأحتسيها في بطء على أي حال، كمريض يُحقن وريديًا بمادة الثيوفيللين الخطرة[٢] ، إلى حين يهدي الله مديرينا.

سأطمئن على الكون بناظري المشغول بالأفق الشاسع، محملقًا في لا شيء وفي كل شيء. ستظل لسعة الصباح المهدهدة لحواسنا، صيفًا وشتاءَ، هي علامة استيقاظي التي أستطيع بعدها بدء يومي بكل أريحية.

سيبقى عم حسن كما هو بوابًا حتى الموت، ولن يتحول بائع الفول عن مهنته تلك التي يمارسها منذ أكثر من عشرين عاماً. سأفكر في نفس الأشياء كل يوم وإلى الأبد، وستمشي الحياة بنفس الوتيرة وذات الملل.

أرتدي ملابسي كالعادة. ورغم أن هناك مئات من الطرق والاحتمالات لارتداء خمس قطع من الملابس فقط ، إلا أننا نصمم دومًا على ارتداء ملابسنا بطريقة واحدة فقط وروتينية.

سأرتدي القطع الداخلية، فالبنطال والتي شيرت والجاكت، ثم الساعة والنظارة. هل جرب أحد يومًا أن يلبس النظارة أولًا؟ أن يضع الساعة في معصمه قبل أي شيء؟ أن يجعل الملابس الداخلية آخر ما يرتديه؟! سوف لن يجرب أحد عمومًا، ولا أنا حتى. فكلنا أسرى لشيء لا ندريه وإن كنا نرى عجائب صنعه.

[١] الثيوفيللين: هي مادة تستخدم طبيًا لتوسيع الشعب الهوائية، يتم حقنها في الوريد ببطء شديد، والتسرع في حقنها قد يؤدي إلى مشاكل خطيرة.

آخذ بعضي وأخرج. أقف قليلًا لاستدعاء الأسانسير الذي ينقلني من نقطة الحياد الكوني إلى البلاء اليومي. سأصبح لراصد آخر يقف في شرفة ما واحدًا تافهًا من أبناء الطين الزاحفين إلى أشغالهم كالآلات؛ الباحثين عن لقمة العيش والشراب والفياجرا والمال كالحيوانات.

أكره الأسانسير، وأكره أكثر عامل الأسانسير، ذلك الرجل الغريب الذي يتظاهر بكل أمارات العبقرية، ولا شيء فيه منها ستجده. حين تدخل يبتسم لك بخبث ضاغطًا في تلقائية على زر الطابق الذي تريده؛ وكأنه (كيركجورد) قد توصل إلى سر الحياة ولغزها. وحين تطلب إحدى السيدات منه أمراً ما، سوف لن ينظر إليها، في حين يناديها باسمها، ظنًا أنه بتعرفه على صوتها -دون النظر إليها- قد وجد مفاتيح الحكمة العالية. سوف يستعرض المعلومات التافهة التي يعرفها عن كل شخص يركب معه. سيسأل فلانًا عن أمه المريضة، وعلانًا عن أخيه المتزوج حديثًا، وعلانة عن ابنها الذي أصيب في أحداث ما بعد الثورة، وترتانة التي أخذت أجازة مصيف وسافرت إلى بلطيم. سيستفسر منها عن الجو في بلطيم وأحوال أهل بلطيم، وسيتذكر – دون داع- أيام كان يذهب لابتياع البطيخ ويدوشنا بأمور الطاخ والطيخ، فاللهم بشبش الطوبة التي تحت رأس الفيلسوف (مارسيل)[1].

ها أنا أستقبل الشارع أخيراً، قذرًا موبوءاً كما الجو، كما الماء، الأكل، الملابس، الكلام، الأخلاق، السمع، البصر، الفؤاد..

[1] جابرييل مارسيل هو فيلسوف وجودي فرنسي.

أركب الأتوبيس الموصل إلى حيث أبغي. ثمة عدد لا يحصى من البشر بالداخل. تذكرت-بغيظ شديد وحنق موفور- أحد هؤلاء الأقدمين الذين كانوا يكرهون بيزنطة لأنها مزدحمة على الدوام، ولا يدري المرء أين يحصل على رقعة هادئة يستجم بها. رشدي أباظة أيضًا، في أحد أفلام الستينات، وبينما هو يركب الباص، راح يستغفر الله من هذه المدينة المكتظة بأهلها.

على أي حال لن تقف الحياة. ستُشق لتلك الحشود أنفاق، وتُبنى الكباري. سيستخدم الإنسان القطار والمترو والطائرة، وفوق ذلك لن تُحل الأزمة قط. سيؤكد المسئولون دومًا على خاصية تحديد النسل، ولن يفلح تأكيدهم، وستبقى الأرحام تدفع والشوارع والأزقة والمقاهي تبلع.

إنها المستشفى الكبيرة إياها التي لا غنى لأحد عنها قط. إنها معقل الفقراء والمساكين أبد الدهر. وصلتها أخيراً بعد ساعة وربع من الحشر والزنق. ينتهي يومك من التعب والإرهاق اللذين تكابدهما أثناء انتقالك من البيت إلى العمل- في الوقت الذي يُفترض أن يبدأ فيه- لتمارس نشاطاتك المطلوبة منك كصيدلي محترم داخل مستشفى محترم عتيق.

وبرئة ممتلئة بالعوادم، وأذن مزدحمة تطن بالصفير والضوضاء، وعين مشبعة بمناظر النفايات في كل مكان، والحوادث والخناقات الصباحية، أدخل متوكلًا على الله محل عملي.

بالأمس وصلتنا حالة طارئة، اختلف حولها النواب والأساتذة. وحين سألت بعد أن استقرت الحالة وذهب الخطر عن سر هذا التذبذب في أخذ الإجراءات اللازمة لإسعاف الحالة، أجابني صديق من هؤلاء النواب وهو يمط شفتيه ثم قال متفاخرًا:

ـ التذبذب ده أمر طبيعي جدًا، لاختلاف مدارس الطب ومناهجه.. لكل مدرسة طرقها ووسائلها في التعامل مع الحالات المختلفة.

كم وددت منذ زمن فهم تلك الكلمة غريبة الوقع على السمع والعقل معًا. أتفهم جيدًا كيف يجوز أن يكون للفقه مدارس، ففي ذلك رحمة وسِعة. أدرك تمامًا كيف أن للفلسفة مناهج ومباحث شتى، لمحاصرة الحقيقة من جهات عدة. كيف أن للأدب فرق وجماعات متباينة، للتعبير عن الواقع والحياة تعابير متفاوتة فيها من الجمال والحقيقة نسب مختلفة.

أما أن يكون للطب مدارس، فهذا مالا أطيقه أبدًا. فتلك امرأة في حالة حرجة على المحك، وإما أن يسعفونها أو لا.. إما أن تسترد عافيتها أو ينتزعها الموت. فكيف يمكن أن تختلف الإجراءات في مثل هذه الظروف؟ أليس في أحد هذين الإجراءين نسبة نجاح أوفر من الإجراء الثان؟ لو كان لهما نفس النسبة من النجاح لأصبحا خيارين لا يستدعيا الإدعاء بوجود فرق ومدارس. أما لو كانا مختلفين من حيث نسبة نجاحهما لتحتم الأخذ بالخيار موفور النجاح، ولاعتبر الأخذ بالآخر جريمة وأمرًا مستبعدًا.

ها نحن الآن في الصيدلية، مكاني الأثير حيث أمارس سلطاتي كاملة. حيث أكون (النمرود) ذاته، لو أردت. إنها مجال تخصصي ومجال خبرتي بالكامل، غير أن الصيدلية خاوية على عروشها.. شح الدواء، وعز إتيانه. يقولون إن الديون تراكمت ولم تجد الشركات بدًا من منع توريد الأدوية المطلوبة. تلك سمة كثير من المستشفيات عمومًا.. يأتينا المريض بفقره المدقع وحاجته الماسة، لنكتب له قائمة طويلة بالأدوية المطلوب منه إحضارها على نفقته الخاصة وفي أسرع وقت. بعض الأدوية يصل ثمنها لمئات، بل آلاف من الجنيهات، بينما اختار الرجل هذا المستشفى في الأساس لاحتياجه الشديد وعوزه. سيفغر الرجل فاه، ويأخذ بعضه ويمشي، منتظرًا أجله يأتي في أي وقت وبأي مكان، ولن ندري من قصته بعد ذلك شيئًا.

لقد حضر الدكتور (رأفت)، ذاك الشاب اللطيف جدًا، إنه الأسبوع الأول له. لابد أن آخذه في جولة طويلة أطلعه على أسرار العمل وخبايا مستشفانا الجميل. لم أعتد قط حبس علمي عن أحد، خصوصًا هؤلاء الوافدين الجدد الذين يبدون كطائر مهيض الجناح، في عالم لا يفهمون عنه ولا يفقهون فيه شيئًا. كل الأمور الجديدة بالنسبة لنا تبدو كالطلاسم العظيمة، لابد من واحد يفتح لنا أبواب فهمها.

ها أنت مرة أخرى يا دكتور (رأفت)، لقد مر على وجودك حتى الآن معنا أسبوع بالتمام والكمال. يبدو أن الأمور اتضحت أمامك بعض الشيء. لكن دعني أؤكد لك أنه لازال هناك أمور كثيرة لابد وأن أخبرك بها. هي أمور تستعصي على من لم يتغلغل داخل نسيج المستشفى.

سأعرض لك أمورا خطيرة.. أسرار المهنة، حتى لا تضطرك الظروف للاصطدام في الوقت الذي يكون فيه التغافل والتساهل حكمة تامة وعمل فذ.

لابد أنك ترى معي أن الباطل أحيانًا كثيرة ينفذ الأمور بشكل سلس ويقفل أبوابًا جمة، لا داع لفتحها. الحق يفتح كل الأبواب ومع ذلك لا طائل من ورائه، فهو لا يحل ولا يعقد. ستجد حين تقف مع الحق أن الأبواب المفتوحة هي أبواب الجحيم الألف وقد فتحتها كلها ضدك وعلى نفسك. وهي لن تُغلق على خير ولا يُرتجى من فتحها أصلًا مزية أو نفع. حتى الأشياء الصحيحة أصبحت حكرًا للباطل، فهو القادر على القيام بها بشكل مكتمل. لم أجد بعد -منذ اشتغلت هنا- حقًا صنع شيئاً صحيحاً. أو شيء صحيح نجم عنه آخر صحيح. الحكمة تقول لا يجتمع صحيحان قط، فإما أن تفعل الصواب بشكل خاطيء آثم فاسد، أو تفعل الخطأ بشكل صحيح. وفي كلا الحالين ستجد الكل ممتنًا لك مقبلًا عليك شاكرًا فضلك.

أما حين تفعل الصواب بشكل صحيح، فستجد الكل ضدك، يجرمونك ويلعنون السنين التي أتت بك إليهم وبينهم.

أما الذين يصنعون الخطأ بشكل خطأ، فهم صغار المجرمين الذين وُضع من أجلهم القانون وبُنيت السجون.

ها نحن الآن يا دكتور (رأفت) في غرفة من غرف العمليات، ماذا؟ بهذه السهولة؟ نعم، وما الضير في ذلك؟ بالطبع، لم نعد في حاجة

لتعقيم أو ما شابهه. العلم والأمور تتطور بأسرع مما ندرك نحن. تسأل عن مكان إعداد المريض للعملية؟ هنا، بالضبط، وهنا تتم العملية ثم الإفاقة من بعد. إنها غرفة للرعاية كذلك، بجانب كونها كل ما سبق.. لا لا يا دكتور (رأفت) إن لهذه الغرفة مزية فلكية لن تدركها في الوقت الحالي، ربما تحتاج لمرصد (هابل) لاستيعاب الأمر[١].

تسأل عن المزية الفلكية؟ إم ممم، ربما أحد مزاياها أنه لا يوجد سواها حاليًا، هي الوحيدة المتاحة لتنفيذ الأمر.. أليس ذلك سببًا كافيًا ومقنعًا؟ لابد أن نحمد الله على كل حال. لقد كان للأوائل أمورًا عجيبة في التعقيم والتخدير وتطهير الجروح بعد العمليات. أما التعقيم فلم يكن معروفًا لأجيال كثيرة، والفنيك كان ممتازًا لهذا الغرض. تسأل عن التخدير؟ كان الضرب الشديد على القفا ناجع بشكل لا يتخيل لأجيال كثيرة. أما قِدر الزيت المغلي المقدوح جيدًا فكان لازمًا للتطهير بعد العملية، حيث كان المريض يُلقى به مباشرة.. إنها نعمة من الله ما نحن فيه.

لا تقلق إذن من وجودنا ها هنا فلن يطالنا أذى. إننا ضمن أعضاء المستشفى على أي حال. ماذا لو علمت أمر هذه المندوبة التي جاءت تبحث عن طبيب؟

[١] مرصد هابل هو تلسكوب فضائي يدور حول الأرض ليمدنا بمعلومات هامة عن الكون، وسمي كذلك نسبة إلى عالم الفضاء الأمريكي "إدوين هابل".

جاءت تسعى تسأل عن طبيب معين لتكلمه عن دواء جديد تريده أن يصفه للمرضى، وراحت تسأل عنه في كل مكان. هذا يخبرها بالذهاب يسارًا، وهذا يدلها عليه بالانعطاف يمينًا، حتى وجدت نفسها أمام الطبيب وهو يقف أمام بطن مبقور مفتوح يعمل به.

تسأل عن نجاح العمليات؟ إن ذلك من الأمور النادرة. آه، آسف، أقصد أنه من الأمور البديهية، إن نجاح العمليات لهو أمر بديهي.

إن كل العمليات ناجحة بحمد الله، لا يشوبها إلا نسبة بسيطة من نسب الخطأ البشري اللازمة.. طبيب ينسى مقصًا في كرش مريض، مريض يستيقظ أثناء إجراء العملية، مريض يأخذ جرعة مخدر قوية تودي بحياته، طبيب بالخطأ يتسبب في استئصال جزء من القولون لمريض. لكن لابد من التأكيد على أن نسبة الخطأ عندنا لازالت في المدى المسموح به عالميا.. ماذا؟ لم يعد مسموحًا بنسبة خطأ بالخارج في عالم ما بعد الحداثة؟ إننا في عالم ما قبل التاريخ.. أوه، أقصد نحن لازلنا في طور الحداثة، الفرق بيننا وبينهم في كلمتي "ما بعد" سنحصلهما فيما بعد إن شاء الله.

ستجد حين تدخل المستشفى دمًا كثيرًا مسكوبًا، لا تبالي. ستسمع أنين المرضى المحجوزين يصرخون ويتلوون من الآلام، ولا دواء عندنا لتسكين أوجاعهم تلك، لكن لا تبالي.

على يمينك وأنت تمرق من بوابة المستشفى ستشهد جمعًا من المرضى الجالسين على الأرض في أبأس حال ممكن، واضعين أيديهم على

خدودهم، في انتظار شيء يبدو أنه لا يحدث ولا ينقضي قط. دعني أعرفك بهم.. هؤلاء هم المصابون بالأورام الخبيثة التي تتفشى فينا يومًا بعد يوم بشكل يقول الناس عنه أنه جنوني، لكني أرى تفشي الأورام بيننا يحدث بشكل معقول جدا، لأن كل شيء حولنا سرطاني ولكننا لا نصدق.. نحن نستغرب طوال عمرنا من العلاقة اللازمة بين السبب والنتيجة الخاصة به. لماذا يرسب ابنك الخائب في الامتحانات؟ لماذا لا تلتحق ابنتك المخبولة بكلية الطب؟ لماذا لا تصبح مليونيراً وأنت تقضي معظم أوقاتك في السرير نائمًا؟ لماذا لا تتقدم بلدنا التي لازالت تطحنها الخلافات السياسية والمصالح الشخصية؟ كما ترى نحن لا نرى لزوم حدوث النتيجة عن السبب الخاص الحصري بها.. ماذا قلنا منذ البداية، إياك يا صديقي والمبالاة! اتفقنا؟ فلنكمل إذن جولتنا.

في الجهة المقابلة لمرضى الأورام الخبيثة، ستجد جمعًا آخر من الناس مساكين لا حيلة لهم. هؤلاء هم المرضى الذين أجرينا لهم عمليات في المستشفى وخرجوا مصابين بفيروس "سي".. بعد وقت ما، سينضم أصحاب فيروس "سي" إلى إخوانهم أصحاب الأورام الخبيثة. هذا أمر جيد حتى لا تضطر الدولة لمجابهة المرض في أكثر من جهة، ذلك يشتت جهدها ويضيع وقتها كثيراً. لكن بالله عليك، مالي ألاحظ علامات الضيق على وجهك؟ أنا أخبرك بكل هذا لتصبح ضليعًا في عالم الطب والصيدلة وأضع يدك على أسرارهما. فيا أخي، لا تبالي، لا تبالي أبدًا..

عندما يمر بك بعض الوقت داخل المستشفى وتضع يدك على الخبايا، سآخذك إلى قسم معين. في هذا القسم يضعون الأشخاص الذين

يموتون أثناء إجراء العمليات لهم بسبب تقصير أو إهمال. ليس من الحكمة في مثل هذه الظروف إخبار أهل المريض بوفاته، لابد أن تكون أكثر حنكة. خذ وقتك داخل غرفة العمليات وكأن الأمور تجري طبيعية، لا تدع الأدرينالين يغير من ملامح وجهك أو يجعل تصرفاتك أكثر عصبية، يجب حَبك الدور بشكل كامل. طمئن أهل المريض وأعلمهم أن الأمور تمشي على ما يرام. بعد وقت معين أخرج المريض وعلى وجهة قناع التنفس بحيث يبدو صدره جلياً في صعوده وهبوطه، وقل لهم إنه يحتاج بعض الوقت ليستفيق. فجأة، وضح لهم أن شيئًا ما خطر قد حدث دون توقع، الحالة تسوء وتحتاج لرعاية مركزة ودعاء، المريض بين يدي مولاه، وقد قدمنا كل ما نستطيع. اطلب أكياس دم كثيرة وأدوية معينة يصعب إحضارها، أرهق أهل المريض وشتت قواهم، بالغ في طلباتك الشاقة والتعجيزية حتى إذا ما جاء الميقات المحدد الملائم، أخبرهم بأن "البقاء لله وحده".

سيلومون أنفسهم على الوقت الذي استغرقوه لشراء أكياس الدم، والدواء الذي بحثوا عنه جزافًا ولم يعثروا عليه في غير صيدلية واحدة، لكنه جاء متأخراً كثيرًا.. ستبدو القصة محكمة وستنطلي على الجميع، وسيقتنعون بأن التأخير الذي حدث كان مدبراً من الله لأن لكل أجل كتاب، ولا يمكن لشخص ما استبقاء أحد إذا ما جاءت سكرة الموت. لا تخف، عندنا تعرف الناس كيف تسوغ كل شيء بشكل فائق.

ستعرف مع الوقت الممرضة الخبرة المميزة من غيرها. فالممرضة المخضرمة الفاهمة ستجدها تمتلك رباطة جأش وقوة أعصاب بحيث لو

صرخ كل من في المستشفى من مرضى بسبب الآلام لما تحركت لها شعرة. هي تعرف جيدًا كيف تتحكم في مشاعرها، بل كيف تلغيها تمامًا. البرود صفة مطلوبة لمن يعمل داخل المستشفيات. لو أضعنا دمعة على كل مريض يدخل أو حالة وفاة تحدث لما بقى في مآقينا دمع ولا في قلوبنا إحساس. ستجد الممرضة إياها تأتي إليك في الصيدلية لترجع دواء فائضًا، وستخبرك وفي فمها علكة تمضغها بميوعة بأن المرتجع لحالة وفاة، وياسلام لو قالت لك بلغة إنجليزية بولاقية "Die". حين تجد أشلاء ممزقة في حادثة ما، ستجدها متماسكة ولا تُبدي حتى أقل حركات التأثر والخشوع. راقبها حين يأتيها أهل مريض يستفسرون عن حالة مريضهم، يودون لو تطمئنهم فيهدأ بالهم؛ لكنها بكل حزم وبجفاء شديد وبثقة تامة ستنهرهم ولا تريح لهم بالًا، بل تحيلهم على الطبيب المعالج الذي ربما يكون قد سافر وقتها في رحلة إلى المريخ. إنها تكره جدًا أن يتدخل أحد ليستعلم منها عن شيء بينما هي تمسك بهاتفها الجوال تحادث حبيبها (سيد بشلة).

مالي أرى أمارات الغضب على وجهك؟ لا تبتئس يا صديقي، فأنا لك ناصح أمين.

ماذا؟ تريدني أن أخبرك عن الأطباء؟ حسنا سأطلعك على أمرهم لكن ما رأيك لو أخذنا زجاجتين من المشروبات الغازية أولًا؟ نعم ثمن الزجاجة هنا ضعف ثمنها بالخارج، ماذا؟ ياصديقي كما ترى المستشفى مليء بالمنكوبين والموبوءين والمرضى. إنه ظرف ملائم تمامًا للبيع بأسعار سياحية والمتاجرة بأوجاع الناس، ثم إنك مهما بالغت في

الأسعار فليس هنا أحد قادر على الشكوى أو الاعتراض. هل في وسع شخص ميت الجدال بخصوص ثمن زجاجة كانز مضروب ثمنها في اثنين؟ أو حتى في ثلاث؟

فلنعد للأطباء. ثمة نوعان من الأطباء في بلدنا هذه: نوع محترف لا تستطيع الذهاب إليه لغلاء الأجر الذي يطلبه مقابل كشفك عنده، ونوع آخر هاو لا يستطيع هو أن يُحدث لك شفاءً عاجلًا ولا آجلًا لمحدودية قدراته. وبين هذا وذاك يا صديقي ترى أن الطريق ممهد بكل سهولة لانتقالك إلى العالم الآخر. وبذلك تجد أن معظم الأطباء في مستشفانا العظيم من النوع الهاو. فلا يجوز عقلًا أن يتدخل المحترفون في الأمور البسيطة الأنسب لذوي الهوايات الصغار. نعم؟ متى يتدخل المحترفون الكبار؟ أكيد عندما تتعقد الأمور البسيطة التي يأتي بها المرضى لتصبح كوارث صحية كبيرة. وقتها لا يصبح هناك نفع لا لهؤلاء ولا لهؤلاء. تسألني كيف تتعقد الأمور البسيطة لتصبح كوارث؟ يا صديقي إن الهاوين إياهم هم ثلة من الشباب ذوي مواهب ومآرب مختلفة وإن تحدد لهم طريق واحد يسلكونه في بلدنا. منهم من كان يعشق الرسم لكن أبواه أجبراه على دخول الطب؛ ومنهم من حاول مرارًا التخصص في الموسيقى لكن المستقبل كله لكليات القمة في بلدنا. لذلك لا يصح أن نغضب عندما نجد طبيبًا يمارس فنًا تجريديًا بينما هو يجري عملية بسيطة لمريض ما. ماذا لو طبق قواعد الفن السريالي في كبد مريض أو في بطنه بينما هو يلملم أدوات العملية لينهيها بالخيط والإبرة؟ ثم لا يجب أن نتضايق إذا ما غرز طبيب يهوى الموسيقى

مبضعه في طحال مريض بينما هو يستمع منفعلًا لمقطوعة موسيقية لاسترافنسكي أو بيتهوفن.

لذلك أجدني اليوم يا د(رأفت) مؤمنًا بعدم صلاحية المقولة القديمة القائلة بأن "لكل داء دواء"، فلم يعد عندنا غير داء وبلاء. الداء هو ما يصيبك به الله سبحانه. أما البلاء فهو ما ينالك من أذى الأطباء. واختفى العلاج أو الدواء، فهو إما ناقص أو غال أو لم يوجد بعد.

إنها الثانية بعد الظهر يا دكتور (رأفت)، إن أهم الأوقات قاطبة يا دكتور هو.. ماذا تقول؟ وقت الصلاة؟ لا لا.. وقت المجيء إلى العمل؟ هههههه، لا لا يا دكتور.. إن أهم الأوقات قاطبة هو وقت الذهاب والخروج. دعك من ميعاد المجيء، سنجد من يمضي بالنيابة عنك؛ دعك من ميعاد تسليم الدواء للمريض، هذا أمر غير ذي بال، يمكننا إرجاء ميعاد أخذ الدواء لساعتين إضافيتين أو أكثر، وسيحيا المريض على كل حال. دعك من الوقت الذي نحدده لأحد المنكوبين لمقابلة طبيب بصفة عاجلة دون التأكد من صلاحية هذا الوقت، يمكنك أن تطلب منه المجيء في ميعاد آخر، بعد أسبوع أو اثنين أو حتى شهر.

الأهم من كل شيء ميعاد الخروج، لا يستطيع احد أن يخرج بالنيابة عنك. ضع جانبًا كل الأعمال المفتوحة لتكملها في يوم آخر، يكملها زميلك، زميلتك، لا تكتمل على الإطلاق، المهم الذهاب الآن وبأقصى سرعة.

إن الحكومة لا تعطيك بعض حقك، وما تعطيك إياه باليمين تأخذه منك بالشمال؛ فلا تمن عليها أنت ببعض وقتك.

يا دكتور (رأفت) خذ عني ولا تتردد، حتى لو عارضتني ستجد نفسك يومًا ما مقتنعًا رغما عنك بفكري. أنا لا أحذرك، أو أهددك.. أنا فقط.... أخبرك.

** ** **

الفهرس

◄ إصدارات دار الفؤاد للنشر والتوزيع ►

2015

الكتاب	النوعية	المؤلف
أماليا	رواية	ميرفت البلتاجي
شقلب أحوالك	رواية	وليد نبيه
خفقات دامعة	رواية	رباب فؤاد
خيانة واي فاي	رواية	سلافه الشرقاوي
رسم قلب	كتاب جماعي	كتاب جماعي
اديني عقلك وامشي حافي	كوكتيل ساخر	محمد أبو جاد الله
فابريكا	ديوان شعر	عبده نافع
تحوت.. الإله المنتظر	رواية	كريم الشهاوي
الخروج من مصر الجديدة	رواية	إسلام محمد عيسى
جرعة نيكوتين - ط٣	مجموعة قصصية	محمد طارق

2016

الكتاب	النوعية	المؤلف
دقات على باب الغربة	أدب رحلات	عبد الحميد السنبسي
ثورة محظورة النشر	وثائقي	محمد عبد الغفار
أزمة ثقة	رواية	رباب فؤاد
ولادة متعسرة	مجموعة قصصية	دعاء سيف
أقرباذين	مجموعة قصصية	محمد سمير رجب
حب في زمن الثورة	كتاب جماعي	كتاب جماعي
نقطة.. رجوع إلى السطر	رواية	سناء البريتي
أصل الحكاية	رواية	محمد عبد العاطي
ورقة في دوسيه	ديوان شعر	محمود الجوهري
انتفاضة العملاق الداخلي	كتاب تحفيزي	مصطفى محمود
خطوة لربك	شبابـي	عبد الرحمن سعيد
شعب مالوش كتالوج	كتاب جماعي	أدمنز صفحة الضاكتور
التوقعات المرئية للخطوبة المصرية	رواية	رضا ربيع
زوجة مستقلة	رواية	سلافة الشرقاوي


دار
الفؤاد
للنشر والتوزيع